المكتبة الصوفية

رياضة النفس

للإمام الحافظ محمد بن على الحكيم الترمذى
المتوفى سنة ٣٢٠ هـ

تحقيق وتعليق

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح

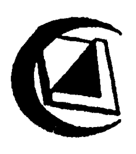
أ.د. أحمد عبده عوض

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع	١٤٧٨٦/ ٢٠٠١
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 341 -058 -7



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد ـ الظاهر ـ القاهرة
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلاله وبجماله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، وصاحب الشفاعة العظمى، وعلى آله وصحبه وذوى نسبه الكرام، وبعد ..

فقد ظهر الحكيم الترمذى فى فترة حرجة؛ كانت أحوج إلى ما تكون إلى الحكيم؛ الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) وكان والد الحكيم من رواة الحديث الذين رحلوا فى طلبه، واشتغلوا بروايته.

وقد عاش الترمذى فى بيت علم، فكان أبوه وأمه وجدته من رواة الحديث، وأخذ كذلك عن كثير من شيوخ المحدثين فى عصره.

وفتح الحكيم الترمذى عينيه على حلقات العلم، وروايات الحديث، والدرس، منذ بدأ يعقل. لأن أباه كان أحد علماء الفقه بجانب رواية الحديث. وأخذ أبوه يغرس فيه حب العلم، وتحصيل المعارف، ويحمله على ذلك فى وقت مبكر؛ حتى امتلأ قلبه منذ الصبا بالإقبال على مذاكرة العلوم وتحصيلها.

وقد أخذ الحكيم الترمذى عن كثير من شيوخ المحدثين فى عصره، ومنهم أئمة فى الفقه، وفى الحديث، وفى التفسير، وفى اللغة.

وليس عجباً أن يتميز الحكيم الترمذى بعد ذلك؛ فقد شهد له معاصروه بالفضل، وأشادوا بتصانيفه فى أصول الشريعة، ومعانى الحديث،

وعلوم القرآن.

يقول عنه الهجويرى المتوفى سنة ٤٧٠هـ فى كتابه "كشف المحجوب" "محمد - أى الحكيم - در، يتيم؛ إذ لا قرين له فى العالم كله، وله كتب فى علوم الظاهر، وإسناد عال فى الأحاديث".

وقال عنه العطار فى (تذكرة الأولياء): السليم السنة، عظيم الملة، مجتهد الأولياء، منفرد الأصفياء حرم القدس، شيخ الوقت: محمد بن على الترمذى رحمة الله عليه، المحتشم بين الشيوخ، المحترم بين أهل الولاية، الداعى بكل اللغات، الشارح لمعانى الأحاديث والآيات.

كان آية فى شرح المعانى، والثقة فى الحديث، ورواية الأخبار، والأعجوبة فى بيان المعارف، والحقائق الكاملة القبول.

العظيم الشفقة، العجيب الحلم، العالى الخلق، صاحب الرياضيات والكرامات، الكامل فى فنون العلم، والمجتهد فى الشريعة والطريقة.

وصاحب (كنوز الأولياء) يقول عنه: من كبار المشايخ، وهو مجتهد فى الشريعة والطريقة، وله مصنفات فيهما، ولم يقلد أحداً. كان أعجوبة الدهر فى العلم والحكمة والعطاء والفيض الإلهى.

والمخطوطة التى بين أيدينا، نقدمها القراء العربية للحكيم الترمذى، وهو أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن الترمذى، وعنوانها (الرياضة) تدخل فى إطار الفتح الربانى الذى عهدناه لدى هذا الرجل الملهم.

وتقرأ من خلالها كيفية رياضة النفس، وروضها. إلى طاعة الله عز

وجـل، ونتعرف على الأكيـاس مـن النـاس، وكيـف أن الأنـوار تشـرق علـى قلوبهم، وتنقاد نفوسهم.

ثم يحدثنا الحكيم عن الفرح المحمود للمسلم، وأقسـامه مـن فـرح بـا لله عز وجل، وفرح بفضل ا لله ورحمته، وفرح بلقاء ا لله عز وجل.

ويوازن الحكيم بين نور المعرفة ونور العقل، وينتهى إلى أن أهل المجـاهدة فرقتان :- فرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض، وسارت إلى ا لله عـز وجـل قلباً، فلم تعرج على شئ حتى وصلت إلى ا لله عز وجل.

وفرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض بجهد وتعب، ومع ذلك هنـاك تخليط وتهافت فى الخطايا، وأدناس لا يسلم منها.

ويركز الحكيم الترمذى على كيفية الحفـاظ علـى الجـوارح، وكيـف أن الجـوارح أسـلمت آدم إلى معصيتـه تعـالى، وكيـف يسـتطيع المسـلم ترويـض جوارحه ونفسه لطاعة ا لله عز وجل.

ويميز الحكيم بين الوسيلة والوصيلة، وعلاقة ذلك بـالتقوى، وكيـف أن جهاد الصديقين يكون بابتغاء وسيلة الهـم والحـزن، وكلمـا ازداد قربهـم اشـتد شوقهم فازدادوا حتى عطشت قلوبهم، وامتـلأت أحزانـاً، حتـى قطعـوا الحيـاة والعمر بالأحزان.

ويفصل الحكيم القول عن حديث حارثة ﷺ ، ومـا فيـه مـن إشـراقات واستحضار لمشاهد القيامة، والنجاة فى لزوم ذلك (أبصـرت فـالزم، عبـد نـوّر ا لله قلبه).

ويأخذنا بعد ذلك إلى صراع الشيطان مع الإنسان، ووسائل الغواية لديه، وكيف أن جنود الله من الملائكة يردون كيده، ويعصمون الصالحين من العباد.

وفي هذا يذكر المؤلف صفات الملائكة وأدوارهم ومهامهم وأصنافهم وعبادتهم.

ويُختم الحكيم ببيان كيفية تأديب المسلم نفسه، وأخذها إلى تقوى الظاهر والباطن، وكيف يستعين على ذلك برؤية الموتى والمقابر وأهل السجون حتى يرث الهم والحزن، وعندئذ يدخل في قوله ﷺ (ما عُبد الله عز وجل بمثل طول الأحزان).

رحم الله الحكيم الترمذي، وقدس الله روحه، وجعل هذا العلم في ميزان حسناته، وعفا الله عنه وعنا، وجمعنا وإياه في مستقر رحمته سبحانه.

اللهم صلى وسلم على سيد الأولين وخير الآخرين وعلى آله وأصحابه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المحققان

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح — أ.د. أحمد عبده عوض

مقدمة الكتاب

قال أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن الترمذى رحمة الله عليه:

الحمد لله رب العالمين، ولى الحمد وأهله. أما بعد.

فإن الله تعالى خلق الآدميين لخدمته، وخلق ما سواهم سخرة لهم، فقال تعالى فى تنزيله: ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾[١] ، ثم قال: ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه﴾[٢] ، فجعل فى كلٍ مسخراً لما يحتاج إليه هؤلاء الخدم، وما يرجع نفعه اليهم.

وهم كلهم قانتون، يؤدون السخرة إلى هؤلاء الخدم، فأظهر خلقهم من القدرة بقوله: ﴿كن﴾[٣] وأظهر خلق هؤلاء الخدم من المحبة بيده، فعجن طينته، وصوره بيده، ثم جعله ذا أجزاء، كل جزء منه يعمل عملاً غير عمل الآخر، ثم نفخ فيه من روحه، وهو روح الحياة[٤].

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٨.

(٢) سورة الجاثية، آية : ١٣.

(٣) نقرأ فى هذا قوله تعالى ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ البقرة ١١٧ - ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ آل عمران ٤٧ ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ يس ٨٢.

(٤) هذا المعنى موجود فى قوله تعالى ﴿الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ٠ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين٠ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ السجدة ٧ - ٩.

ونفست الطينة[١] فبدت النفس واستقرت، وتنفست في الجوف. فجعل ظاهره يدين ذواتي أصابع ومفاصل. يبسط ويقبض، ورجلين موشجتين في الوركين، ذواتي ساقين، وقدمين.. يختلف بهما في قطع المسافات، وعينين بهما يشتمل على الألوان لذة وجهدا، وأذنين بهما يتناول الأصوات لذة وخبرا، ولسانا يديره في قبو حنكه إلى شفتيه ليتلفظ بنعماته من صدره إلى شفتيه.

مؤدية تلك النغمات معاني الأمور التي يعقل، وتتردد في صدره صور تلك الأمور، فتصير تلك الصور حروفا مؤلفة، فيبرزها بصوت يسمع به آذات المستمعين له، حتى تصير تلك الأسماع قمعا لهذا الصوت، فيتحول ما في صدر هذا من علم الأمور، إلى صدر المستمع من طريق فم هذا إلى أذن الآخر.

فيكون قد أفرغ ما في صدره من صور الأمور، ومعانيها بالحروف والصوت، إلى صدر صاحبه.

وجعل له منخرين للنفس والمشام، ومعدة صيرها دار رزقه، وباب هذه الدار متصل بالقبو، وبابين في أسفل جسده، أحدهما مخرج للذرية، والآخر مخرج الفضول والأذى، وذلك أن العدو لما غره حتى أكل من الشجرة، وجد السبيل إلى معدته بتلك الأكلة التي أطاعه فيها، فجعله مستقره، فنتن ما في المعدة لرجاسة العدو.

فمن هاهنا وجب علينا غسل الأطراف مما يظهر من المعدة من الغائط

---

(١) نفست من تنفس ونفس وهي دليل الحياة ومظهرها،والنَّفَس: الريح تدخل وتخرج من أنف الحي ذي الرئة وفمه حال التنفس.

ونفست الطينة : دبت فيها الروح

والبول وريحهما.

ثم وضع فى جوفه بضعة جوفاء سماها قلباً وفؤاداً، فما بطن منها فهو القلب، وما ظهر منها فهو الفؤاد.

وإنما سمى قلباً لأنه ينقلب بتقليب الله عز وجل إياه، لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، يقلبه بمشيئاته فيه، وسمى فؤادا لأنه غشاء لتلك البضعة الباطنة، ومنه يقال: هذا خبز فنيد، وخبز ملة[1]، لأنه خبزة قد ظاهرها أخرى.

وجعل له على هذا الفؤاد عينين وأذنين، وبابا فى الصدر، وصير القلب يبتا له عينان وأذنان، وبابا فى الصدر، وجعل الصدر ساحة هذا البيت، وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبدا.

وجعلها مجمع عروق هذا الجسد كله، ومنه ينقسم ما يخرج من المعدة من قوة الطعام الذى طحنته المعدة، حتى صار دما طريا، فجرى فى جميع العروق.

وألصق بأسفله بضعة أخرى، فسماها طحالا، وإلى جانب الأخرى سماها رئة، ومسكن النفس فيها، ومنها تتنفس النفس لحياتها التى فيها، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين.

ثم وضع بين القلب والرئة وعاء رقيقا، فيه ريح هفافة، تجرى فى العروق مجرى الدم، وأصل تلك الريح من باب النار، مخلوقة من نار جهنم، لم يصل إليها سلطان الله وغضبه، فتسود كما أسودت جهنم.

بل هى نار مضيئة حفت النار بها، موضوع هذه النار الفرح والزينة،

---

(١) خبز الملة قال العلماء: ما يخبز فى الملة، وهى الرماد الحار يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج.

وسماها شهوة، وإنما سميت شهوة لاهتشاش النفس إليها، يقال، اهتشت واشتهت.

الاهتشاش فى الظاهر، والاشتهاء فى الباطن، وكلاهما فى الحروف عددهما سواء، إلا أنه قدم الهاء هاهنا وأخر هناك، ليكون فرقاً بين النوعين.

فالنفس إذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكر شى، أحسست النفس بذلك، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح، والنفس مسكنها فى الرئة، ثم هى منفشة فى جميع الجسد، والروح مسكنه فى الرأس إلى أصل الأذنين، ومعقلها فى الوتين، وهى منفشة فى جميع الجسد، والروح فيه حياة، والنفس فيها حياة، فهما يعملان فى جميع الجسد لحياتهما.

حتى تتحرك الجوارح فى جميع الجسد فى الظاهر والباطن بالحياتين اللتين وضعتا فيهما، والروح نور فيه روح الحياة، والنفس ريح كدرة جنسها أرضية، وفيها روح الحياة. ووضع الرحمة فى الكبد، والرأفة فى الطحال، والمكر فى الكليتين، وعلم الأشياء فى الصدر.

وجعل مستقر الذهن فى الصدر، ثم هو متفش فى البدن كله، والذهن يقبل العلم جملة، وقرينه الحفز، وجعل فى ناصيته الفهم، وجعل له طريقا إلى عين الفؤاد فالحفظ مستود ع العلم.

فإذا احتاج الفؤاد إلى شئ لحظ إلى الحفظ، فأبرز الحفظ له علم ذلك الشئ المستود ع الذى قد تعلمه.

وجعل ماء الذرية فى صلبه، فمنه ماء أخذ عليه الميثاق يوم أخرجهم من الظهور، فعرضهم على آدم صلى الله عليه وسلم، ومنه ماء لم يؤخذ عليه الميثاق، وجعل مجراه من صلبه إلى نفسه. ووضع الفرح فى قلبه، وجعل مجراه إلى صلبه، لتتأدى حرارة ذلك الفرح إلى الصلب، فتذيب ماء الصلب، فبقوة هذا الفرح يخرج

ذلك الماء، فيدفق به، وإنما صار دفقا لقوة الفرح، وهبوب رياحها، وضيق المخرج.

فإذا افتقد الإنسان الفرح عجز عن الدفق. فهذا لعامة الآدميين. ثم خص المؤمنين بنور العقل، فجعل مسكنه فى الدماغ، وجعل له بابا من دماغه إلى صدره، ليشرق شعاعه بين عينى الفؤاد، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمور، فيميز بين الأمور ما حسن منها وما قبح.

ووضع نور التوحيد فى باطن هذه البضعة، وهى القلب، وفيه نور الحياة فحيى القلب با لله تبارك وتعالى، وفتح عينى الفؤاد، فأشرق نور التوحيد إلى الصدر من باب القلب فأبصر عينا الفؤاد بنور الحياة التى بها نور التوحيد، فوحد ا لله عز وجل، وعرفه.

وميز العقل تلك العلوم التى أعطى الذهن فى صدره جملة، فيصيرها شعبا شعبا، فصارت معرفة حين انشعبت، فهذا عمل العقل فى الصدر.

صفات ظاهرة وباطنة

والهوى أصله من نفس النار، فإذا خرج ذلك النفس من النار، احتمل من ذلك الحفوف من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح، فأورد على النفس.

فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة، هاجت بما فيها من الفرح والزينة الموضوعة إلى جانبها فى ذلك الوعاء، وهى ريح حارة، فدبت فى العروق، فامتلأت العروق منها فى أسرع من الطرفة.

والعروق مشتملة على جميع الجسد، من القرن إلى القدم، فإذا دبت فى العروق، ولذت النفس دبيها وانفشاشها فى الجسد، وامتلأت النفس لذة، وهشت

إلى ذلك الشيء، فتلك شهوتها ولذتها.

فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد، فصارت تلك الشهوة نهمة على القلب، والنهمة غلبة الشهوة وغليانها، فإذا غلت الشهوة غلبت على القلب، فيصير القلب منهوما، وهو أن تقهر القلب حتى تتمنه، فتستعمله بذلك، فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها فى البطن.

وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن فى الصدر، وجعل المعرفة فى القلب، والفهم فى الفؤاد، والعقل فى الدماغ، والحفظ قرينه.

وجعل للشهوة بابا من مستقره إلى الصدر، يفور دخان تلك الشهوات التى جاء بها الهوى، حتى يتأدى ذلك إلى الصدر، فيحيط بفؤاده، وتبقى عينا الفؤاد فى ذلك الدخان، وذلك الدخان اسمه الحمق، قد حال بين عينى الفؤاد وبين النظر إلى نور العقل ماذا يدبر له.

وكذلك الغضب إذا فار، فهو كالغيم يقف بين عينى الفؤاد حتى يصير العقل منكمنا، لأن العقل مستقره فى الدماغ، وشعاعه مشرق إلى الصدر، فإذا خرج ذلك الغيم (غيم الغضب) من الجوف إلى الصدر، امتلأ الصدر منه، وبقيت عينا الفؤاد فى ذلك الغيم.

لأن شعاع العقل قد انقطع، وحال الغيم بينه وبين الفؤاد، فصار الفؤاد من الكافر فى ظلمة الكفر، وهى الغلفة التى ذكرها الله تعالى فى التنزيل: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾[1] وقال تعالى: ﴿بل قلوبهم فى غمرة من هذا﴾[2] . وصار الفؤاد من

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٨.

(٢) سورة المؤمنون: آية ٦٣.

المؤمن فى دخان الشهوات وغيوم الكبر، فذلك غفلة.

ومن الكبر أصل الغضب والكبر فى النفس. لما أحست بما ولى ا لله تعالى من خلقها، فيبقى ذلك الكبر فيها. فهذه صفة ظاهرة الآدمى وباطنة.

فوقعت الجباية من ا لله تعالى والخيرة على هذا الموحد، من كل ألف واحد، وبقى تسع مئة وتسعة وتسعون، رفع البال عنهم، وجعل باله لواحد من كل ألف من الآدميين، فقسم الحظوظ يوم المقادير بالبال، ورفض من لم يبال به، فخابوا عن الحظوظ.

فلما استخردهم ذرية من الأصلاب استنطقهم، فاعترف له أهل الحظوظ من باله، طوعا لقوله عز وجل حين قال: ﴿ألست بربكم﴾[1] . واعترف من خاب عن الحظوظ، ومن لم ينل من باله بقوله ﴿بلى﴾ كرها، فذلك قوله عز وجل: ﴿وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها﴾[2]، فيصيرهم فريقين: عن اليمين وعن الشمال.

ثم قال تعالى: هؤلاء فى الجنة ولا أبالى، أى لا أبالى بمغفرتى أن تنالهم، وهؤلاء فى النار ولا أبالى، أى ولا أبالى بهؤلاء إلى أين بصيرون.

ثم ردهم إلى صلب آدم عليه السلام، فيخرجهم فى أيام الدنيا للأعمال وإقامة الحجة فكل من وقعت عليه جبايته واختياره له، وصبغ قلبه، أى غمس قلبه فى ماء الرحمة حتى طهر به، وهو قوله عز وجل ﴿صبغة ا لله ومن أحسن من ا لله صبغة﴾[3]

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

ثم أحياء بنور الحياة وقد كان قبل ذلك بضعة من لحم جوفا.

فلما أحياه بنور الحياة تحرك وفتح عينيه اللتين على الفؤاد، ثم هداه بنوره، وهو نور التوحيد، ونور العقل، فلما أشرف فى صدره، واستقر الفؤاد وهو القلب إلى ذلك النور، فعرف ربه عز وجل بذلك، فذلك قوله عز وجل: ﴿أومن كان ميتا فأحييناه﴾(١) ، أى بنور الحياة.

ثم قال تعالى: ﴿وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس﴾(٢) ، أى نور التوحيد يمشى من ذلك النور فى الناس.

ثم أوله قلبه بذلك النور إليه، حتى اطمأنت النفس وسكنت إلى أنه وحده لا إله غيره فعندها نطق اللسان عن طمأنينة النفس وموافقتها للقلب بلا إله إلا ا لله، وذلك قوله عز وجل: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن ا لله﴾ وهو قوله عز وجل: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾(٣) .

فلما اطمأنت النفس حين رأت تلك الزينة التى زين العقل بين عينى الفؤاد توحيد الرب عز وجل، وجدت حلاوة حب ا لله تعالى، التى وردت على القلب مع نور التوحيد، فلما رأت تلك الزينة وجدت حلاوة الحب الذى فى نور التوحيد، فعندها اطمأنت وسكنت إلى توحيده، فشهدت بلا إله إلا ا لله، وذلك قوله عز وجل: ﴿حبب إليكم الإيمان وزينة فى قلوبكم﴾(٤) .

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢.

(٣) سورة الفجر: الآية ٢٧.

(٤) سورة الحجرات: آية ٧.

فلما نالت النفس تلك الزينة كرهت الكفر والفسوق والعصيان.

فالمؤمن إذا أذنب فإنما يعصى بالشهوة والنهمة وهو كاره للفسوق والعصيان، ومع الكراهية يفسق ويعصى بغفلة، ولا يقصد الفسق والعصيان كما قصد إبليس.

فتلك الكراهية موجودة فيه، والشهوة غالبة عليه، والكراهية من أجل العتوحيد الذى فيه، إلا أن القلب مقهور بما فيه، والعقل منكمن، والصدر ممتلئ من دخان تلك الشهوة، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب.

لأن العقل قد غلب، والمعرفة قد انفردت، والذهن قد تبدد، والحفظ مع العقل منكمن فى الدماغ، والنفس قد قامت على ذنبها، بما وجدت من القوة فى تلك الشهوة، والعدو يزين ويرجى ويمنى المغفرة، ويدل على التوبة، حتى يجرئه قلبا ويشجعه.

المجاهدة

فلما كان العبد بهذه الصفة، أما بالمجاهدة، فقال عز وجل: ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده﴾[1] .

ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد، أخبرهم عن منته وحسن صنيعه، وبره، ولطفه بهم، فقال عز وجل: ﴿هو اجتباكم، وما جعل عليكن فى الدين من حرج﴾[2] .

---

(١) سورة الحج: آية ٧٨.

(٢) سورة الحج: آية ٧٨.

يعلمهم أنه لو لم يجتبيهم، ولم يوقـع اختيـاره عليهـم، مـا كـانوا ينـالون نـور الرحمة ونـور المعرفـة، وكـانوا أسـارى فـى يـد العـدو، وحطبـا للنـار، فأخـبرهم أنـه اجتباهم.

ثم قال عز وجل: ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾[1] . يعلمهـم أنـى حين ألزمت جوارحكم أمرى ونهيي، لم أضيق عليكم حتى تحرجوا، بل أبحت لكـم، ووسعت عليكم مالا يضيق عليكم، حتى تفزعوا إلى الحرام.

ولم أحملكم فرائضى حملا تعجزون عنه، ووسعت لكم فى كـل فريضـة مـا لم يضيق عليكم، وكل شهوة منعتكم عنها، أطلقت لكم مـن بعضهـا، فوضعـت علـى كل جارحة من هذه السبع حداً، ووكلتكم يحفظها.

والجوارح السـبع هـى اللسـان، والسـمع، والبصـر، واليـدان، والرجـلان، والبطن، والفرج وجعلت مستقر هذه الشهوة فى البطن.

فإن اشتهى الكـلام خـرج سـلطان تلـك الشـهوة إلى الصـدر وإلى القلـب، والقلب أمير على هذه الجوارح، فإذا غلب سلطان الشهوة وحلاوتهـا ولذتهـا علـى القلب، وانكمن سلطان المعرفة وحلاوتها ولذتها فى القلب، وسلطان العقل وزينتـه وبهجته فى الدماغ، تحير الذهن عن التدبير، وخمد نور العلـم فـى الصـدر، فظهـرت المعصية على الجوارح.

وإذا غلب سلطان المعرفة ولذتها وحلاوتها، وسـلطان العقـل وزينتـه وبهجتـه، احتد الذهن، واستنار العلم، وانتشر وأشرف، وقوى القلب، فقام منصبـا متوجهـا بعـين فؤاده إلى الله تعالى، وجاء المدد والعطاء، وظهرت العزيمة على ترك المعصية العارضة.

---

(١) سورة الحج: آية ٧٨.

فإذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر النفس، ورفض ما عزمت عليه، فانقمعت النفس وذابت، وسكن غليان الشهوة، وماتت اللذة، وسكنت العروق، ودرست صورة تلك المعصية عن الصدر، وتخلص العبد.

فأمر بالمجاهدة إذا عرض ذكر شئ على الصدر، وقد حرم الله عز وجل الشئ عليه وذلك أنه لما عرض الذكر اهتاجت النفس لما هاجها الهوى، وأورد العدو الزينة التى وضعت بين يديه، وجعل له السبيل إلى صدره ليزين.

وتلك الزينة هى الفرج الذى وصفنا أنه بباب النار، فأصله الفرح، وحشوه الزينة، وكلاهما من النار خلقاً، سميت شهوة لاهتشاش النفس، وهو قول رسول الله ﷺ "حفت النار بالشهوات".

ولذلك قال عمر ﷺ فى خطبته: "إن العدو مع الدنيا، وأرصاده مع الهوى ومكره فى الشهوات".

فإنما يصير العدو إلى العباد مع أفراح الدنيا وزينتها، ويرصد الهوى الذى يهيج من الآدمى، ويمكر به إذا اشتهت النفس.

وإنما صار مكرا لأن هذه الشهوا بعضها مطلق، وبعضها محظور، فيمكر به فى المطلق له، ليجره إلى المحظور عليه، لأن النفس بلهاء، فإذا مرت فى الحلال، فتمكنت منه، سلست فى الحرام، إذا لم يكن فى القلب ما يقيد النفس عن الحرام، ويقويها حتى لا تسلس، وقوة القلب من النور فإذا جاهد العبد، فمن جهاده أن يروض نفسه فيؤديها.

وأدب النفس أن يمنعها الحلال، [ادب النفس] حتى لاتطمع فى الحرام، وذلك أن النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام، فإذا لم يلزمها الصمت فيما لابد

منه، حتى تعتاد السكون عن الكلام فيما لا بد منه، فقد ماتت شهوة الكلام، فاستراح وقوى على الصدق، فلا يتكلم إلا بحق، فصار سكوته عبادة، وكلامه عبادةن لأنه إن نطق نطق بحق، وإن سكت سكت بحق، لأنه سكت مخالفة الوبال.

وكانت شهوة النظر، فاعتادت النفس لذة رمى البصر حيثما وقع، من غير مبالاة، فإذا لم يلزمها الخفض عما لابد منه، وهو أن يكون خاشع الطرف، خافض النظر، اعتادت نفسه رمى البصر، لتدرك الأشياء.

فإذا أرى الحرام لم يملك بصره، لأن شهوة النظر قد أخذت بعينه فملكته، فإذا ألزم عينه الغض عن النظر، ورمى بها إلى الأرض إذا مشى وقام وقعد، ماتت شهوة النظر إلى الأشياء، واعتادت غض البصر وحفظه، فإذا نظر نظر بحق، وإذا غض غض بحق، وصار نظره عبادة، وغضه عبادة.

وكذلك شهوة السمع واليدين والرجلين والبطن والفرج. فالمجاهدة هاهنا إذا عزم العبد على مجاهدة النفس، ألزم كل جارحة من هذه الجوارح السبع الفطام عن عملها حلالاً كان أو حراماً، حتى تموت تلك الشهوة.

لأن تلك الشهوة هى شهوة واحدة، أحل له بعضها، وحرم عليه بعضها، بلوى من الله تعالى لعباده، وتدبيراً لهم، فما علم أنه يصلح لهم ويصلحون عليه أطلقه لهم، وما علم أنه يفسدهم وأنهم يفسدون عليه حظره عليهم فالمطلق حلال، والمحظور حرام.

وذلك مثل الكلام، فهى شهوة واحدة، بعضها حلال، وبعضها حرام، فالاستماع إلى الأصوات بعضه حلال، وبعضه حرام، والنظر إلى الأشياء بعضه حلال، وبعضه حرام، والأخذ والإعطاء بعضه حلال، وبعضه حرام.

وكذلك المشى، والبطن والفرج كذلك، وإنما هى شهوة واحدة لكل جارحة، أحل للعبد إمضاء تلك الشهوة، وقضاء تلك النهمة، بصفة وهيئة، وحرم عليه بصفة أخرى وهيئة، كالمرأة يطؤها بالنكاح فتحل، ويطؤها بغير نكاح فتحرم عليه، وكذلك كل شئ خرج من هذه الجوارح من الحركات.

وقد أخذ عليه يوم الميثاق إلا يعمل جارحة إلا بما أطلق له فى التنزيل، وعلى ألسنة الرسل، وقبل العبد ذلك يومئذ فأوثقه بما ضمن فاقتضاه الوفاء، ولذلك سمى بالعجمية "بنده" لأنه أوثق بما قبل من الطاعة فى الأمر والنهى.

فإذا وفى له بتلك البندكية، وفى له بالعهد، وهى الجنة، فقام العبد بمجاهدة النفس عندما يعرض ذكر شهوة محرمة عليه، فعلى العبد أن يجاهدها بقلبه، بما فيه من المعرفة، وتعلقه بالمواعظ التى وعظه الله عز وجل، من الوعد والوعيد، وذكر الموت والحساب والقبر والقيامة، حتى يزجر النفس والعدو.

فإذا كان العبد لم يرض نفسه قبل ذلك ولم يؤدبها، ولم يعودها رفض ما ذكرنا بدءا من رفض هذه الشهوة المطلقة له. حتى تذل وتسكن، ويلزمها خوف الله عز وجل وخشيته لم يملك نفسه عند ذكر ما يعرض لها، ولم يقدر على تسكينها، بل هى تغلب القلب بما فيها من سلطان الفرح، والزينة، والشهوة، فيصير القلب أسيراً للنفس، بعد أن كان أميراً على النفس.

لأن إمارة القلب بالمعرفة، وبما أعطى من هذه الأنوار التى وصفنا، ومن نور العقل، ونور الحفظ، ونور الفهم، ونور العلم، ونور السكينة. فأجل للعبد فى الأمر.

فقيل له: جاهد فى الله عز وجل حق جهاده، فمن لم يرض نفسه قبل ذلك،

فإذا جاهد فربما غَلَبَ وربما غُلبَ، فلذلك يوجد العبد مرة طائعاً، ومرةً عاصياً في شهوة واحدة.

[الأكياس]

فأما الأكياس فراضوا أنفسهم، فأدبوها.[1] فامتنعوا من الحلال المطلق لهم، حتى هدأت جوارحهم، وإنما هدأت وسكنت لسكون غليان شهوة النفس، فإذا استعملوها كان القلب أميراً قاهراً، فاستعمل تلك الشهوة بما يريه العقل، ويزين له، ويحد له. فيذدب بأدب الله عز وجل الذى أدبه.

فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال. فلا تجاوزه، فهو ينطق، فإذا بلغ في منطقه مكاناً يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذباً، ملك نفسه، فامتنع وتورع.

لأن شهوة الكلام قد ماتت منه. فهو يتكلم لله عز وجل، وابتغاء مرضاته. وكذلك النظر، إذا كان قد راوض نفسه. حتى ماتت منه شهوة النظر، ملك نفسه عند الحرام، وملك السمع، وسائر الجوارح السبع.

روى أن سهل بن على المروزى – رحمه الله تعالى – كان إذا مشى في السوق حَشَى أذنيه بالقطن،[2] ورمى ببصره إلى الأرض. وكان يقول لامرأة أخيه

---

(١) رياضة النفس وترويضها أى تهذيبها الأخلاق النفسية ملازمة العبادات والتخلى عن الشهوات. ويقال: روض الشئ: ذلله، وراض نفسه بالتقوى.

(٢) هذا مبدأ عظيم فى حفظ الجوارح من الوقوع فى الآثام وذلك بغض البصر، وحفظ اللسان، وحفظ السمع، وحفظ اليدين والرجلين، وحفظ الفرج، وعدم إدخال مال حرام على بطن الإنسان، وأن يتسم بسلوك الورع واتقاء الشبهات، نقرأ بعضاً من هذه المعانى فى قوله تعالى ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلاً﴾ الإسراء ٣٦.

وهي في الدار معه: استتري مني.

وكان ذلك دأبه زمانا، ثم ترك ذلك ورمى بالقطن، ورفع بصره إلى النـاس. وقال لامرأة أخيه، كوني كيف شئت، فذلك منه حيث وجد شهوته ميتة.

وروى عن عامر بني عبد قيس - رحمه الله تعالى - أنه قال: ما أبـالي إمـرأة لقيت أو حائطاً..

وروى عن بعض التابعين أنه قال: ألزمت نفسي الصمت بحصاة جعلتها فـي فمي. وكان إذا أكل أخرجها، وإذا فرغ وضعها في فيه. وكذلك إذا صلـى، فبقى في ذلك أربعين سنة، حتى لزمت نفسه الصمت فرمى بها.

وروى لنا عن رسول الله ﷺ أنه مر برجل يعبث في صلاته بلحيتـه. فقـال: "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه"[1] وإنما يخشع القلب بما يتجلى له من عظمـة الله - عز وجل جلاله - ويهيج من النفس الخوف، والخشية والحيـاء منـه، فيوجـل القلب، فإذا خافت النفس، وخشيت فوجل القلـب، واستـحيا. سـكنت الجـوارح، وملك القلب جوارحه، ووقف بها على الحدود.

فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فـورات الشـهوات، وحلاوتهـا، وزينتهـا كالدخـان، والغيـم، فلـم يسـتعين إشـراق الأنـوار، واكمنـت الأنـوار بمـا فيهـا مـن السرور، والبهجة، والزينة، والحلاوة، واللذة.

فلم يتجل في الصـدر نـور العظمـة، والسـلطان، وافتقـد صاحبـه الخـوف،

---

(١) حديث شريف مشهور يذكره أصحاب الحديث في باب الخشوع لكنه لم يرد في المعجم المفهرس الجامع لأحاديثه ﷺ.

والخشية، والحياء. أن يعملوا على القلب، والنفس فأصابت النفس. فهمّتها بما زين لها العدو، ومناها الغرور والأمانى الكاذبة، يعدها سعة المغفرة ووقارة الرحمة، وفيض العفو ، والتجاوز، ويحدث نفسه بالتوبة ليتجرأ على الذنب.

[الرياضة]

والأكياس بحثوا عن أصل هـذه الأمور، ووجدوه – على ما ذكرنا – ، فخلصوا إلى الرياضة، فقالوا: إنا لما وجدنا النفس تأشر، وتبطر، وتستمر على الفرح، حتى تصير بحال من إمتلائها بالفرح بالأشياء، كالسكران الذى لايفيق من سكره.

فكل شئ نالت من الدنيا من حال أو عرض، أو حال. مطلق لها أو غير مطلق فرحت، فذلك الفرح. سم يجرى فى العروق حتى يستحل على الجسد، ويمتلئ القلب من حلاوة ذلك الفرح، ويصير أشراً بطراً، لا يذكر موتاً، ولا قيامة، ولا حساباً، ولا شيئاً من أهوال القيامة.

فذلك فرح يميت القلب. وتستمر النفس عليه، وتطيب، وتستوى الشهوة وتحتد، فهذا فرح مذموم، ذمه الله عز وجل فى تنزيله، فقال: ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾[2] .

---

(١) سورة الرعد آية : ٢٦.

(٢) سورة القصص آية : ٧٦.

ودل على الفرح المحمود، وندب إليه فقال عز وجل ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾[١] .

فإذا فرح العبد بما فضله الله عز وجل على سائر العبيد، فمن عليه بالمعرفة والعقل، فاستنار قلبه، وطابت نفسه، فتعاونا على الشكر والحمد، فاستوجب المزيد، فقال عز وجل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[٢] ، ففرحه بذلك يجلب عليه المزيد، فهذا الفرح ترياق، وذلك الفرح سم.

فمن شرب الترياق لم يضره السم.

وإنما صار سماً. لأنه زينة، وفرح من جنس النار، وباب النار، وهو خط إبليس، فجاء به الهوى مع العدو إلى هذا الآدمي بهذه الأشياء الدنياوية ليبتليه، ليفرح بهذا أو يستعمله معرضاً لاهياً.

أو يقبل على ربه عز وجل، وداره التي مهدت له. فقد قال عز وجل في تنزيله: ﴿زين للناس حب الشهوات﴾[٣].

ثم ذكر النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحرث. ثم قال تعالى ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾[٤] .

فإذا فرح العبد بهذين المزيّن، الذى قد خلص حب تلك الزينة، وشهوتها

---

(١) سورة يونس آية : ٥٨.

(٢) سورة إبراهيم آية : ٧.

(٣) سورة آل عمران آية : ١٤.

(٤) سورة آل عمران آية : ١٤.

إلى قلبه، وسماه الفرح. فإنه حسن المآب. فقد وصف الله - عز وجل - حسن المآب فقال: ﴿قل أؤنبؤكم بخير من ذلكم﴾[١] ، ثم بين لمن هى، فقال: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾[٢] . فوصفها بما فيها، ثم بين المتقين من هم، فقال عز وجل: ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾.

وقال عز وجل ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾[٣] .

فمن شغله الفرح بهذه الزينة، وملك قلبه حب هذه الشهوات، فقد ألهاه عن ذكر الله عز وجل، وفاتته التقوى، والصبر،والصدق، والقنوت، وحجزه عن الإنفاق، ونومه عن الاستغفار بالأسحار.

فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوها بمنعها الشهوات التى أطلقت لهم، فلم يتمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لابدمنه، كهيئة المضطر، حتى ذبلت النفس وطفئت حرارة تلك الشهوات، ثم زادوها منعاً حتى ذبلت، واسترضت.

فكلما منعوها شهوة أتاهم الله على منعها نوراً فى القلب، فقوى القلب وضعفت النفس، وحيى القلب بالله جل ثناؤه، وماتت النفس عن الشهوات.

حتى امتلأ القلب من الأنوار، وخلت النفس من الشهوات فأشرق الصدر بتلك الأنوار فجلب على النفس خوفاً، وخشية، وحياء، واستولى على النفس وقهرها.

فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التى أعطيت القلوب، بما فيها

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٥.

(٢) سورة آل عمران آية : ١٥.

(٣) سورة المنافقين آية : ٩.

من المعرفة، فعلى حسب تأديب القلب النفس ينال القلب ولاية وسلطانا.

فإذا أشرقت الأنوار من القلب فى الصدر، وخلا الصدر من دخان الشهوات، أبرز القلب سلطانه، فانقادت النفس، وسلست، وألقت بيدها سلماً وانكمن العدو، واختشى[1] .

فمن لم يرض نفسه على ما وصفنا، وأعطاها مناها من الحلال، وانكمش فى أعمال البر مستظهراً به. عجل له ثواب أعمال البر فى العاجل نوراً، ففى الصدر ذلك النور، وليس له من القوة ما يمنع النفس من قضاء النهمه، فيمضى فى الشهوات الحلال بلا نية، فيتعطل، ويبقى بلا حسنة ولا أجر، ومعه فساد الباطن، من حب الدنيا، والرغبة، والرهبة من المخلوقين، وخوف فوت الرزق، وخوف، والحسد، والحقد، وطلب العلو، وطلب العز، والجاه، وحب الرياسة، وحب الثناء والمدحة، والكب،ر والفخر، والصلف والغضب، والحمية وسوء الظن، والبخل، والمن والأذى، والعجب والاتكال على العمل، ودواه كبيرة.

فكم من فعل سيئ يظهر على أركان هذا، ومع هذه الدواهى. ففساد القلب، وخراب الصدر من الفرح بالدنيا، وأحوال النفس. كلما ازدادت النفس فرحاً بهذه الأشياء؛ قويت، واحتدت، واشتد سلطانها، حتى تصير شرهة أشرة، بطرة مستبدة[2].

---

(١) كمن فى المكان كُموناً: توارى واستخفى فى مكمن لا يفطن له.

واكتمن : اختفى

واختشى من الخوف والخشية، وخشاه : خافه.

(٢) البطر: هو الزهو والتكبر، وبطر النعمة استخفها فكفرها، وفى التنزيل العزيز ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ وبطر الحق: أنكره ولم يقبله.

فإذا هويت شيئاً من الشهوات لم يملك القلب من أمرها شيئاً، ولم يتورع عن الحرام. وإن تورع عن الحرام لم يتنزه عن الفضول، وإن تنزه عن الفضول. يتناول ما يحتاج إليه على غفلة، وفقد النية والحسبة.

فإن تناول بنية وحسبة تناول على فقد ذكر المنة، وإن تناول على ذكر المنة، تناول على فقد رؤية المنة، واللطف، والبر. فهو أبداً في نقصان، في أي درجة كان؛ لأنه محجوب عن الله عز وجل، وإنما حجبه عن الله عز وجل، فرح بغير الله عز وجل.

[الفرح المحمود]

فالفرح المحمود على ضربين:

- فرح بالله عز وجل.
- وفرح بفضل الله ورحمته.

فالفرح بفضل الله وبرحمته ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس في ذكر مولاه.

فقال عز وجل في تنزيله: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾[1] .

وقال تعالى فيما روى: ﴿قل للصديقين بي فافرحوا، وبذكرى فتنعموا﴾ وإنما يفرح بذكر عز وجل حين يرى منته عليه، وإنما يفرح بالله عز وجل من وصل إلى الله عز وجل، ومن كان مرعاه بين يديه في ملك في ملكه؛ والواصلون إلى

---

(١) سورة يونس آية: ٥٨.

قرب ا لله عز وجل مرعاهم تحت العرش فى القربة.

فالأكياس صاروا إلى ا لله عز وجل فى هذا الطريق، وتوقـوا كـل فـرح فمـا فرحوا بشئ من الدنيا، أو بشئ من أعمال البر، وقالوا: إنما فسـاد قلوبنـا مـن فـرح النفس، لأن النفس إذا فرحت بشئ إستولت على القلب، فلم ينفذ له شئ، فليـس بنا التمييز بين الأعمال، لأنا لا نسير إلى ا لله تعالى بالأعمال، إنما نسير إليه بـالقلوب نزاهة وطهارة.

فإنما يدنس القلب بأفراح النفس؛ وصار القلب محجوباً عن ا لله عـز وجـل، فكانوا يصونون قلوبهم عن الفرح بكل شئ دق أو جل ، للضرر الذى يحدث عنه.

ومن جهل هذا الباب توقى الحرام، والشبهة، وانكمش فى أعمال البر، فهو فى الظاهر عامر، وفى الباطن خراب؛ لأن النفس شاركت القلب فى تدبير العمـل، فإذا شاركت أخذت نصيبها، والهوى مقرون بالنفس، فلا يتخلـص العمـل لصاحبـه أبداً؛ وإنما صار هذا هكذا.

لأن ا لله عز وجل أوله قلوب العباد إلى ألوهيته، فمن صان قلبه عمـا تـورد النفس عليه. بقى قلبه مع ا لله عز وجل. فى جميع الأحوال، فهو أبداً واله بـا لله عز وجل[1]، والوالـه تعلـق القلـب بـه، ومـن لم يصـن قلبـه حتـى أوردت النفـس عليـه أفراحها التى أورد عليهـا الهـدى مـن بـاب النـار، فقـد صـار ولـه قلبـه إلى الهـوى، فالصائن أوله قلبه ا لله بأفراحه وحبه، والتارك للصيانة أوله قلبـه الهـوى بأفراحـه إلى باب النار ولجت تلك الزينة.

فالكيس لما أبصر هذا التدبير من ا لله تعالى أنه خلق الآدمـى هكـذا، وجعـل

---

(١) أى شديد التعلق با لله عز وجل، وبلغ درجة من المحبة ثم الوجد ثم القربى.

فيه قلباً ونفساً، ثم جعل للقلوب محلاً فى عظمته، حتى تسير القلوب إلى ذلك المحل فيكون مقامها هناك حتى إذا صار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعملها بذكره، معظماً لشأنه، حافظاً لحدوده.

حتى إذا سار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعملها بذكره، معظماً لشأنه، حافظاً لحدوده فى جميع حركات جوارحه، مؤتمراً بأمره، متناهياً عن نهيه وإن دق، مراعياً لتدبيره، راضياً بحكمه.

وذلك كله بقوة ما يلاحظه من عظمته، وجلاله بين يديه، فيخشاه، ويتقيه، ويخافه، ويرجوه، ويستحى منه، ويهابه، ويعظمه.

وخلق بباب النار هذه الأفراح، والزينة من النار، وحفت النار بها[1] .

ثم خلق الهوى وأصله من الشيطان، فمر بهذه الأفراح إلى نفس هذا الآدمى، حتى تستعمل هذه الأشياء الملائمة لها، اللينة فى ذاتها، الناعمة لجسدها، بذلك الفرح.

فابتلى عباده بهذين الفرحين: فرح هناك بين يدى عظمته. ومحله القلوب، وفرح هاهنا يورده الهوى، فيزيله الهوى عن ذلك الوله الذى فى ذلك المحل، فيرده من هنا إلى ما هناك.

فمن التفت عن ذلك الوله إلى هذا الوله، حجب عن الله عز وجل، ونفى عن الوله، ورجع قلبه لما رجعت النفس إلى هذا الوله الذى أولهه الهوى فخاب وخسر.

---

(١) هذا المعنى موجود فى قوله ﷺ [حُفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات].

وكذلك حذر الله عز وجل عباده فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾[١] .

ثم قال: ﴿ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾[٢] .

فلم يعب المال، والولد، وإنما عاب الوله بالمال، والولد، لأن الفرح والوله بالمال والوله يلهيه عن ذكر الله عز وجل، إذا لم يكن فيه فرح بفضل الله ورحمته. ودعاه الهوى إلى أن يفرح بالمال، لزينة الدنيا وبهجتها ولذتها، وبالفرح بالولد، ليلعب به ويلهو، ويتزين به، ويستظهر به، ويعتضد.

فصار المال، والولد فتنة لحبه إياهما فلم يحب المال من أجل أنه عون له على طاعة الله عز وجل، ولم يحب الولد من أجل أنه غصن من شجرته، خرج ليعبد مولاه، فيكون له جاهاً عند الله عز وجل بما يعبده ولده، ولكنه أحبهما للتكاثر، والتفاخر، والتعاضد، تزينا بهما عند أهل الدنيا، كما قال الله عزو وجل في تنزيله: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾[٣] .

ثم قال عز وجل: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً﴾[٤] .

فمن أحبها للزينة، وفرح بها، كان فرحه للدنيا، وكان وله قلبه إلى الهوى. لا إلى الله عز وجل.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : "ما تحت أديم السماء إله يعبد من دون الله

---

(١) سورة المنافقين آية: ٩.

(٢) سورة المنافقين آية: ٩.

(٣) سورة الكهف آية : ٤٦.

(٤) سورة الكهف آية : ٤٦.

عز وجل، أبغض إلى ا لله عز وجل من الهوى".

وقال : "أرأيت من اتخذ إلهه هواه"[١] .

فلما اتبعوا الشهوات، ولم يرضوا نفوسهم. انقطعت القلوب عن محل الألوهية إلى الهوى، ففرحت بما أورد الهوى عليها عن دنياه، فضاعت الحدود، وذهبت العبودية، وخانوا الأمانة، فماتت قلوبهم عن الحياة بالحى القيوم.

وُروى عن مالك بن دينار رحمه ا لله قال: مكتوب فى بعض الكتب: (إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين، فاحتل فى كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله) .فهذه شهوات الدنيا إذا كانت مع الهوى.

فأما إذا تناولها وكان وله قلبه بين يدى ا لله تعالى فى ملك العظمة، كان على سبيل نبى ا لله تعالى سليمان عليه السلام، ملك الدنيا شرقها وغربها. وقلبه أخشع القلوب لله عز وجل، فلم يضره، فقال تعالى: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾[٢] .

ثم قال تعالى: ﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾[٣] فإنما ارتفع الحساب عنه، لأنه تناولها. وكان وله قلبه إلى ا لله عز وجل.

فقد كشفنا عن هذا الأمر بأن قلنا: إن قلب العبد موقوف بين يدى الوله إلى محل العظمة، وبين الوله إلى الهوى، إلى محل باب النار.

---

(١) سورة الفرقان آية : ٤٢.

(٢) سورة ص آية ٣٩ .

(٣) سورة ص آية ٤٠.

ففى العظمة أفراح وزينة، وبباب النار أفراح وزينة، فتلك الأفراح بالقلب، وهذه الأفراح التى بباب النار فى النفس، هـو الهوى، وهـو ريـح مـن نفـس النـار؛ والذى يورد هذه الأفراح على القلب، هو نور المعرفة، ونور العقل، حتـى يشـخصا ببصر قلبك إلى نور العظمة، فيرجع عليك مع الأفراح؛ فالعباد موقوفون بـين هـاتين الحالتين.

[أهل المجاهدة]

فالإنسان منذ سقط من بطن أمه غـذى بالشـهوات، وكلمـا نشـأ نشـأ معـه فرح، وذلك فرح وجود اللذة والنعمة، وفرح الحياة بما فيها مـن الزينـة واللبهجـة؛ فلما شب وعقل قامت عليه الحجة.

فاقتفى الوفاء بالاسلام، وهو الأمـر والنهـى فـأراده قلبـاً، فاسـتعصت عليـه النفس، فاحتاج إلى مجاهدتها، حتى يقيم أمر ا لله عـز وجـل، ويفـى بالإسـلام الـذى قبله، وسيسعد غداً بجنته وجواره لأنه دعاه دعوة إلى ا لله عز وجل حـين قـال تعـالى ﴿ففروا إلى ا لله﴾[1].

ودعاه إلى دار السلام حين قـال: ﴿وا لله يدعـو إلى دار السـلام﴾[2] فصـار أهل المجاهدة فرقتين:

فرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض، وسـارت إلى ا لله عـز وجـل قلبـاً، فلم تعرج على شئ حتى وصلت إلى ا لله عز وجل.

---

(١) سورة الذاريات آية : ٥٠.

(٢) سورة يونس آية : ٢٥.

وفرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض بجهد، وتعب، فى كد محافظة، وحراسة، ومع ذلك تخليط وتهافت فى الخطايا، وأدناس لا يستطيع أن يسلم منها، بمنزله راع أعطى سبعة أغنام، ليرعاها فى سبعة أودية فى تلك الأودية سموم قاتلة، وجرف هارية، وسباع ضارية، فهو قائم على أكمه مراقباً لتلك الأغنام.

فإن دعت سما بادرها بالبازهر، والسمن، واللبن، حتى يردها إلى العافية.

وإن تردت فى جرف فتكسرت، عمد إلى ما تكسر منها، فجبرها حتى تجبر.

وإن عرضت لها السباع زاد عنها. وطردها، وجدها فريسة استلبها من مخالبها وأنيابها، فداواها حتى تبرأ؛ فوكل العبد بجوارحه السبع ليحفظها، حتى لاتتعدى الحدود.

فإنه إذا تعدى الحدود، وعصى الله عز وجل، وخان الأمانة، وظلم نفسه، سقطت منزلته، فبعد عن الله عز وجل، فإذا بعد عنه. تباعد عن الرحمة، وصار مرفوضاً مخذولاً، فأسره العدو، وذهب به إلى النار.

لأنه إذا أسره العدو. ذهبت قوة القلب، واستولت النفس، فمرت فى كل شهوة جزافاً، فلم تبال حلالاً، ولا حراماً. فهلكت.

فهذا شأن العبد فى حفظ الجوارح، قال الله تعالى: ﴿ والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون﴾[1] .

ثم قال الله عز وجل: ﴿أولئك فى جنات مكرمون﴾[2].

---

(١) سورة المؤمنين آية : ٨.

(٢) سورة المعارج : آية ٣٢.

حدثنا صالح بن عبد الله، حدثنا جرير، عن ليث، عن بنى أبى نجيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه، قال: "أول خلق الله من الانسان فرجه، فقال: هذه أمانة خبأتها عندك، فلا ترسل منها شيئاً إلا بحقها".

فالفرج أمانة، والبصر أمانة، والسمع أمانة، واللسان أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، والبطن أمانة.

فإنما بدأ بالفرج، لأن جميع الأفراج تجتمع عند استعماله، وهو أقوى اللذات، وبه دخل النار أهله.

وقيل يارسول الله: ما يدخل الناس النار؟ قال: " الأجوفان: البطن والفرج"[١].

وإنما خبأه عند عبده، يعنى آدم عليه السلام، لأنه بدء الفرج، وهو سر الله عز وجل مقرون بسر القدر، لا ينكشف إلا لأهل الجنة فيها، فأمر بسر العودة لذلك، لأنه خلق مستور، خبأه الله عز وجل عندنا، وأمرنا بحفظه، وسماه سوءة، فحرص العدو على أن يهتك ذلك الستر، حتى يبدو لنا.

وقبل ذلك كان مستوراً عن آدم وحواء عليهما السلام، وإنما بدا بالمعصية، قال الله عز وجل: ﴿ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾[٢] .

فإنما صير كل جارحة من هذه السبع أمانة عندنا، لأن كل جارحة ذات شهوة، ومجمع الشهوات فى النفس، فإذا استعمل هذه الشهوات بإذن الله تعالى

---

(١) حديث شريف ورد فى سنن ابن ماجه ومسند الامام أحمد بن حنبل بسند صحيح، لكنه ورد بلفظ مشابه (.. قال الأجوفان: البطن والفرج).

(٢) سورة الأعراف آية : ٢٧.

وبلغ بها الحد الذى حده له، فهو مطلق له.

وإذا تعدى إلى المحظور صار ملوماً، قال الله عز وجل: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم﴾[١].

ثم أثنى عليهم فقال ﴿والدين لفروجهم حافظون إلا على على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾[٢].

فأزال الملامة عن إستعماله فى نكاح، أو ملك يمين؛ ثم قال عز وجل ﴿فمنى ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾[٣] فذم الحد، وكذلك فى كل جارحه على هذه الصفة.

فالراعى يحفظ هذه الأغنام حتى يصلح ما فسد منها، على ما وصفنا، فكذلك الذى وقف بمجاهدته على نفسه، يحفظ جوارحه على الحدود، فى النظر، والكلام، والاستمتاع، والأخذ، والعطاء، والبطن، والفرج، فإذا غلب أو زل، أو نسى، أو غفل، عاد إلى مركز الطاعة بين يدى الله عز وجل بالاستغفار والتوبة؛ فهذا عبد فى جهد الاستقامة، وباطنه غير مستقيم، لأن شهوات نفسه قائمة بين يديه، فهو يمنعها بجهد، و متى ما غفل عنها زل وسقط.

[السير]

فطريق هذا العبد إلى دار السلام، ليس له وراء هذا مسلك وأما الذى راض نفسه وأدبها، ومنعها اللذات والشهوات، حتى طهر قلبه، واستوجب القربه بطهارة

---

(١) سورة النور آية : ٣٠

(٢) سورة المؤمنين آية : ٥ -٦.

(٣) سورة المؤمنين آية : ٧.

قلبه، وآثر الفرح با لله على الفرح بما أورده الهوى على نفسه من أفراح الدنيا، فتح ا لله عز وجل له طريقاً إليه، فسار سيراً لم يلتفت إلى دار السلام.

لأنه لما أخذ فى الرياضة أخذه بصدق، فلم يقف فى الطريق على شئ مفروح به، ولو كان أسنى عمل من الأعمال، لأنه إذا توقى الفرح بلذات الدنيا وشهواتها، أمد القلب النور، وهان عليه رفض الشهوات، حتى إذا انكمش فى أعمال البر، فرح القلب بتلك الأعمال، ليقطع عن النفس فرحها بذلك العمل، لأنها إذا فرحت بعمل من أعمال البر، اطمأنت إلى ذلك العمل.

فإذا اطمأنت إلى شئ دون ا لله عز وجل، فقد نترك سيره إليه ووقف على ذلك العمل، فاقتضى منه صدق ذلك العمل، وهو أن تجد حلاوة حب الثناء والمدحة لذلك العمل.

فهو وإن أخفاه وستره علمت نفسه أن الناس يحسون بذلك منه، ويشعرون به فيأنس بعلم الناس، وملاحظة أعينهم إليه، فلا يصفو له عمل، ولا يقدر أن يخلص بأكثر من هذا، فيقبل منه إذا رد الذى عرض له من ذلك قبول الصادقين لا قبول الصديقين.

فينبغى للمبتدئ فى هذا الأمر أن يبدأ بالصوم، فيصوم شهرين متتابعين توبة من ا لله عز وجل.

وعد ا لله عز وجل فى تنزيله أن شهرين توبة من ا لله عز وجل لعبده إذا تابعهما، ثم ينتقل من الصوم إلى الإفطار، فيطعم اليسير من الشئ يتجزأ به. فإن كان فى اليوم مراراً كسرة كسرة، فهو أجود له من أن يملأ بطنه، فيصيرها أكله، وإنما ذلك محمود عند الأطباء.

فنقول أكلة واحدة كي يستمر بها، وذلك لا يدخل في هذا الباب لأن صاحب هذا لا يأكل حتى يتخم[1]، إنما نشير عليه بأن يأكل كسرة قوتاً، فيداوى نفسه على ذلك وبين الأيام دسما قليلاً، لئلا تهيج عليه الرياح، وتضطرب العروق، ويقطع الإدام والفواكه عن نفسه.

وكذلك في الكسوة، يجتزئ بالدون وما لا بدمنه.

وكذلك في سائر الأحوال التي للنفس فيها حظ من الفرح واللذة يقطعها عن نفسه، ومجالسة الإخوان، والنظر في الكتب. فهذا كله أفراح النفس وجماعها.

[صدق المريدين]

وفي الجملة: ينبغي أن يتفقد كل حال، وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار، من نعمه، أو وجوده لذة، أو أنس بشيء، فيقطعه عنها. وأنه كلما هويت النفس شيئاً أعطاها فرحت به، فينبغي له أن يمنعها. ولو شربة من ماء بارد. تريد أن تشربها، فيمنعها في تلك الفورة التي تشوقت لوجود بردها. ولذتها، حتى تسكن تلك الفورة، وينغص عليها[2] .

ثم يسقيها بعد ذلك حتى يملأها غماً، ويوقرها هماً، لأن من شأنها إذا حبس عنها هذه الأفراح بهذه الأشياء، وبهذه الأحوال، فكأنه يصيرها في سجن، فيتقرب إلى الله عز وجل بغمها وهمها، فيعجل الله عز وجل له ثوابه نوراً على

---

(١) التُخمة: داء يصيب الإنسان من أكل الطعام أو امتلاء المعدة، والجمع: تُخمات، وتُخم.

(٢) التنغيص: تكدير العيش ،نَغَصَ عليه: كدَّر، نغَّص فلاناً: كدّر عيشه: ويقال نغَّص عليه عيشَه.

القلب، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها، وعلى أخذ سلطانها؛ ويستولى عليها. وهى تذل، وتذبل. والعدو يخسأ، ويتحير، ويبطل كيده ومكره.

حتى إذا انتهى إلى أعمال البر، فكل عمل يراها تفرح به أو تأنس به، يقطع عنها ذلك العمل، حتى إنه لو قرأ القرآن فرجع فيه وغنى، منعها ذلك، لأنها متى وجدت شيئاً مفروحاً به، أنست، وأطمأنت إليه، ومدت القلب إلى ذلك الأنس، فمتى يصل القلب إلى الأنس با لله عز وجل، والطمأنينة إليه والوله إلى عظمته، وصفاء الحب له، فهذا صدق المريدين ربهم عز وجل، والسائرين بالصدق إليه، والطالبين له فى منازل القربة.

فينبغى أن يتقى كل فرح للنفس فيه نصيب، حتى يصل إلى ربه تعالى، فإذا وصل إلى ربه عز وجل إمتلأ قلبه به فرحاً وسروراً، ويقيناً، فكل شئ مد إليه يداً من دنيا أو آخرة لم يضره، لأنه منه يقبل.

فإذا قبل منه حمده عليه وشكره، وكانت جوارحه مستقيمة، حافظة للحدود، معتصمة بخوف ا لله عز وجل، ولسانه ذاكر، وبدنه شاكر صابر، لأنه امتلأ قلبه با لله تعالى فرحاً، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مكاناً.

فإذا فرح بشئ فى الدنيا، فإنما يفرح ببر ا لله تعالى له بذلك، وتقديره، وتدبيره، ولطفه. ولا يخون أمانته، ولا يكفر نعمه، ولا ينس ذكره، ولا يحدث عيباً.

فاستعمال جوارحه فى ذلك الشئ بمنزلة رجل شرب ترياقاً، فامتلأت عروقه منه، فإن مد يده إلى حية، أو عقرب. لم يضره سمها، لأنه لا يجد السم مسلكاً

إلى عروقه. فإذا لم يجد الترياق وجد السم مسلكاً إلى عروقه، فجمد الدم الـذى فـى العروق من ذلك السم فمات.

فكذلك أفراح الدنيا تجرى فى العروق مجرى الدم، فتشمل الجوارح كلهـا، فتأخذ القلب فتسبيه[1] ، فإذا دخلت الأنوار القلب بمـا راض نفسـه بهـذه الرياضـة التى ذكرنا؛ عجل له ثواب رياضته، فانشرح الصدر، وانفسح.

فصارت الآخرة له كالمعاينة، ولا حظ الملكوت بتلك العين: عين الفؤاد، فى فسحة ذلك النور المشرق فى الصدر، فرأى شأنا عجيبـاً مـن عظمـة ا لله عـز وجـل وجلاله، ورأى من لطف ا لله عز وجل بالعبيد، وبره بهـم، وإحسانه إليهـم، ومننـه عليهم.

فامتلأ القلب به فرحاً، وجرت الأفراح فى العروق، حتى امتلأت.

فمتى تجد بعد ذلك أفـراح الدنيـا مسـلكاً إلى عروقـه، حتـى يكـون لذلـك الفرح سلطان يأخذ القلب فيسـبيه، فعندهـا يمـد يـده إلى مـا أحـل لـه مـن الطعـام، والشراب، واللباس، والنكاح، والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه، فيقبله من ربه عز وجل على تدبيره الذى دبر له.

فإن أخذ أخذ بحق، وإن أمسك أمسك بحق، وإن أعطى أعطـى بحـق، وقلبـه حر من رق النفس وفتنتها.

وذلك الشئ، وذلك العمل بمنزلة رجل لـه مـلء بيـت دنانـير يملكهـا، وإن أعطاه رجل صرة فيها عشرة دنانير، لم يعمل فى قلبه فرح تلك العطيـة عمـلاً يؤثـر

---

(١) سبى القلب: أى أسره، يصير مأسوراً وتسابى القوم: سبى بعضهم بعضاً .. والسَّبى : المأسور وهو سبيةُ أيضاً.

أثراً، ولا يستبين.

وإن كان عنده تلك الصرة، فسقطت منه حتى تويت، لم يبد عليه ضرر ذلك، ولا عمل على قلبه حزن ذلك، ولا هو فرح بما أصاب، ولا حزن على ما توى وذهب، لامتلاء قلبه بفرح تلك الدنانير، التى هى ملء بيت.

فكذلك من فرح قلبه با لله عز وجل، استغنى با لله عز وجل، فلا تملك قلبه بعد ذلك أفراح الدنيا، لأنه لايستغنى بالدنيا، إنما غناه با لله تعالى؛ وهذا تأويل قول رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم "ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس"[١].

فالنفس إذا استغنت، فغناها بغنى القلب المشرق نوره فى صدره.

فإذا أطمأنت النفس بما أشرق فيها من النور با لله عز وجل، أشرق النور فيه إلى ا لله عز وجل، فقد رق عندها نوال الدنيا من أولها إلى آخرها، فى جنب ما عاين القلب، وأورد من حياة على النفس.

فهذا شأن النفس إذا وصلت إلى ربها عز وجل بوصول القلب. فإنما قلنا إنه لايدع لنفسه قراراً على شئ من أعمال البر.

فكلما فرحت النفس بشئ من الدنيا. أو بالعمل من أعمال البر، قطع عنها ذلك الفرح حتى يغمها، حتى يطهر القلب من أفراح النفس.

فهناك يرحم، لأنه إذا وصل إلى هذه المرتبة، بقى بلا أنس، ولا فرح، قد

---

(١) حديث شريف ورد بسند صحيح فى كتب الصحاح وكتب السنن، لدى ابن ماجه فى سننه، والإمام أحمد فى مسنده.

قطع نفسه أفراح الدين والدنيا، فهو يحفظ جوارحه عن كل ما نهى الله عز وجل وعن كل شئ من الفضول.

فيقيم الفرائض والسنن، لا يزيد عليها، كفى بهذا شغلاً، ولذلك قال رسول الله ﷺ : "أدِّ ما افترض الله عليك، تكن من أعبد الناس، واجتنب محارم الله عز وجل، تكن أورع الناس؛ وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً"(١) .

فهذا المؤمن المستكمل المستحق لاسم الإيمان عند إقامة هذه الخصال الثلاثة، فكفى بهذا شغلاً.

فهذا عبد صدق الله عز وجل فى العبودية. وأما سائر الناس من غير أهل هذه الصفة، فهم متخبطون بطالون، يعبدون الله عز وجل على "الشايدجود"(٢) ، قد طابت أنفسهم ولذات أهوائهم.

وروى أن داود عليه السلام. قال: يارب، أمرتنى أن أطهر بدنى بالصوم والصلاة، فبم أطهر قلبى؟

قال: بالهموم، والغموم : ياداود.

فإنما تدنس القلب بالأفراح. أفراح النفس، فلا يطهر بمثل عمر نوح عليه السلام صوماً وصلاة، وإنما يطهر الصوم والصلاة أدناس الأركان بالمعصية، وإنما يطهر القلب ما يزيل عنه أدناس الفرح، وهو الهموم والغموم.

فلما منعت النفس شهواتها ذبلت، وطفئ تلظى شهواتها، وفوران دخان

---

(١) حديث شريف مشهور ورد بسند جيد فى مسند الإمام أحمد، وسنن أبى داود.

(٢) الشايدجود : كلمة فارسية تعنى عبادة غير صحيحة.

هواها، فزالت أدناس الفرح من القلب، بذهاب الفرح، وطهر بالأنوار التي وجت القلب بمنزلة سحائب تحجبك بظلمتها، وبما فيها من الغبرة عن الشمس.

فلما انقشعت السحائب، وتبددت. أشرقت الشمس، فعندها يصلح لقرب ا لله عز وجل.

قال ا لله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا لله وابتغوا إليه الوسيلة﴾[1] .

فالوسيلة والوصيلة بمعنى واحد. إلا أن الوصيلة أن يوصل الشيء بالشيء. فلما صار الأمر إلى ذكر ا لله عز وجل، أخرجوه مخرج القربة، فقيل وسيلة، بدَّل بالسين صاداً، وبالصاد سيناً.

فيكون له من الألفاظ أشرفها وأعلاها وأنزهها، فأمرهم بابتغاء الوسيلة إليه بالتقوى.

فجماع التقوى ههنا هو ما وصفنا، إلى أن يتقي الفرح في كل شيء، تجد النفس في ذلك الشيء فرحاً: من كلام، أو صيام، أو قيام، أو قعود، أو ذهاب، أو مشي، أو لباس، أو طعام، أو شراب، أو صاحب، أو أهل، أو ولد، إلا فيما لابد منه كالمضطر، فإذا فعله على تلك الهيئة، فعله مع الاهتمام والاغتنام، أو مع الحزن، لأنك تجد ذلك الفعل لله عز وجل خالصاً، لا تأخذ النفس من ذلك الفعل لله حصتها.

فأنت تفعل ذلك الذي لابد منه، فتكسر عليها فرحها، ونشاطها. لذلك التخليط الذي ترى في أمرك من قبلها، حتى يدوم عليها الغم والهم.

---

(١) سورة المائدة آية : ٣٥.

[جهاد الصديقين]

فجهاد الصديقين فى هذا أن يلقوا الفرح بشىء سواه، حتى أوصلهم إلى نفسه، بعد أن امتلأت صدروهم غموماً، وهموماً، فلما أوصلهم قربهم، وَمكّن هم بين يديه، وملأهم فرحاً، فاشتاقوا إليه، فقربهم، فازدادوا شوقاً.

كلما زاد قربهم اشتد شوقهم. فازدادوا حتى عطشت قلوبهم، وامتلأت قلوبهم أحزاناً، حتى قطعوا الحياة، والعمر بالأحزان.

وروى فى الخبر، كان رسول الله ﷺ : "دائم الأحزان والفكر".

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما عبد الله عز وجل بمثل طول الحزن".

وحق لمثل هذا أن يحزن. فإنه وصل بقلبه إلى رب ماجد كريم، فرأى عظمته وجلاله، وعطفا، وبرا، ونال منه حباً. فلم يشف الوصول إليه بتلك القربة. وذلك الفرح به، دون رؤيته فى الجنة.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ : "المؤمن من أمن الناس بوائقه"، والورع سيد العمل، من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله عز وجل إذ خلا بها، لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً"[1].

فذلك مخافة الله عز وجل فى السر والعلانية، والاقتصاد فى الفقر والغنى، والصدق عند الرضا والسخط.

---

(١) حديث شريف ورد بروايات مختلفة، ونجد فى رواية مسلم عن أبى هريرة ﷺ (لايدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه).

إلا أن المؤمن حاكم على نفسه، يرضى للنـاس مـا يرضـى لنفسـه؛ والمؤمـن حسن الخلق، "وأحب الخلق إلى ا لله عز وجل أحسنهم خلقاً "، وينال "بحسن خلقـه درجة الصائم القائم"[١] وهو راقد على فراشه.

لأنه رفع لقلبه علم، فهو يشهد مشاهد القيامة بقلبه، يعد نفسه ضعيفـاً فـى بيته، وروحه عارية فى بدنه، ليس بالمؤمن حقاً من لم يكن حملانه على نفسـه، النـاس منه فى عناء، وهو من نفسه فى عناء.

رحيم فى طاعة ا لله عز وجل، بخيل على دينه، حى مطواع، وأول مـا فـات ابن آدم من دينه الحياء، خاشع القلب لله عز وجل، متواضـع قـد بـرئ مـن الكـبر، قائم على قدميه، ينظر إلى الليل والنهار. يعلم أنهمـا فـى هـدم عمـره، لا يركـن إلى الدنيا ركون الجاهل.

قال رسول ا لله ﷺ : "لا جرم أنه إذا خلف الدنيا خلف الهمـوم والأحـزان، ولا حزن على المؤمن بعد الموت، بل فرحه وسروره مقيم بعد الموت".

حدثنا عبد الجبار بن العلاء بن يوسف بن عطيه قال:

سمعت ثابت البنانى رحمه ا لله تعالى يذكـر عـن أنـس رضـى ا لله عنـه، قـال: بينما رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يمشى إذا استقبله رجل شـاب مـن الأنصـار، فقال له النبى ﷺ : كيف أصبحت ياحارثة؟ قـال: أصبحـت مؤمنـاً بـا لله عـز وجـل حقاً. قال: أنظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقته، قال: يارسول ا لله، عزفـت نفسـى عن الدنيا، فأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى، فكأنى بعرش ربى بـارزاً، وكـأنى أنظـر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار كيف يتعادون فيها.

---

(١) رواه أبو داود عن السيدة عائشة ﵂ .

قال: أبصرت فالزم. عبد نور ا لله الايمان فى قلبه.

فقال يارسول ا لله ادع ا لله لى بالشهادة؛ فدعا له رسول ا لله ﷺ ، فنودى يوماً فى الخيل، فكان أول فارس استشهد، وأول فارس ركب، فبلغ أمه. فجاءت إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، فقالت: يارسول ا لله، أخبرنى عن ابنى إن يك فى الجنة لم أبك عليه. ولم أحزن، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت فى الدنيا؟

فقال: "يا أم الحارث، إنها ليست جنة، ولكنها جنان؛ والحارس فى الفردوس الأعلى". فرجعت وهى تضحك وتقول بخ بخ لك ياحارثة[1] .

قال أبو عبد ا لله رحمه ا لله تعالى : فإنما وصل العبد لله هذه المنزلة بتلك الأنوار. ألا ترى إلى قول رسول ا لله ﷺ : "هذا عبد نور ا لله عز وجل الإيمان فى قلبه".

حدثنا أبى محمد بن الحسن المكى، عن عبد العزيز بن أبى داود يرفعه إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، بمثل حديث يوسف، إلا أنه قال" لكأنى أنظر إلى ربى عز وجل فوق عرشه يقضى بين خلقه".

فقد أعلم أن الايمان فى القلب، ولا يستنير فى الصدر، لإحاطة غيوم الشهوات، وزين الذنوب بالقلب فى الصدر. حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة فإذا جاهدها، وراضها. حتى ينقطع دخان شهواتها، ونوران الهدى، جاءت الأنوار مدداً للإيمان الذى فى القلب، فصار القلب ذا شعاع، وإشراق فى الصدر.

---

(١) هذا حديث مشهور رواه البزار عن أنس بن مالك ﷺ ، ورواه الطبرانى فى الكبير من حديث الحارث بن مالك ﷺ .

فإذا أشرق فى صدره، فذلك عبد نور الله عز وجل الايمان فى قلبه، فلما نوره استنار فى صدره، فصدرت الأمور إلى الجوارح من ذلك النور، ومع الخوف، والخشية، والحياء، فعملت الجوارح على الحدود، والمقدار الذى أمر، مع البهاء والزينة.

وروى عن رسول الله ﷺ :

"إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت فى قلبه نكتة سوداء، فإذا عاد نكت أخرى، فلا يزال ينكت حتى يسوء القلب كله، فإذا تاب ونزع صقل قلبه، فإنما ينصقل بالأنوار حتى يتجلى كالمرآة المجلية، فإذا صار كالمرآه تراءت له الدنيا على هيئتها، والآخرة على هيئتها والملكوت"[1] .

فإذا لاحظ فى الملكوت عظمة الله عز وجل جلاله، صارت الأنوار كلها نوراً واحداً، فأمتلأ الصدر شعاعاً .

بمنزلة رجل نظر فى المرآة، فأبصر صورة نفسه فيها، وأبصر ما بين يديه وما خلفه فيها. فإذا قابل بها عين الشمس، وقع الشعاع فى البيت فأشرق البيت من تقابل النورين: نور عين الشمس ونور المرآة، فكذلك القلب إذا جلى فإنجلى .

فلاحظ العظمة والجلال. تجلت العظمة بين الحجاب لذلك القلب المجلى، لنه طاهر من أدناس المعاصى، وأدناس الشهوات، وأدناس الهوى . والتقى النوران فأمتلأ القلب شعاعاً، فهناك تموت النفس، ويخشع القلب .

---

(١) حديث شريف رواه النسائى والترمذى وابن ماجة من طرق عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه .

حدثنا سفيان بن وكيع، وقتيبة بن سعيد، قالا:- حدثنا عبد الوهاب الثقفى، عن خالد الحذاء، عن أبى قلابة، عن النعمان بن بشير رضى ا لله عنه قال: قال رسول ا لله ﷺ .

"إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته"[1] ولكنه إذا تجلى ا لله عز وجل لشئ من خلقه خشع له .

وكذلك لما تجلى لطور سيناء صارت البقعة التى وقع التجلى عليها كالهباء المبثوث، وما فى جوارها ساخت فى الأرض، فهى تذهب فى تلك البحار التى من وراء الدنيا إلى يوم القيامة فلا تستقر، وما جوارها أبعد منها، صارت ثمانى فلق فطارت هرباً وفرقاً، حتى وقعت أربعة منها فى حرم ا لله عز وجل، وأربعة فى حرم الرسول ﷺ بالمدينة.

وخر موسى عليه الصلاة والسلام صعقاً فصارت الأرض كلها ذات بهجة وزينة، حتى ظهرت الكنوز على ظهر الأرض، وأبصرت العميان، وصح كل مريض، وبرئ كل زمن، وانفتحت الأرحام فحملت كل عقيم، وحل كل أجاج" .

فاعلم فى هذا الحديث: أن الشمس إنما ذهب ضوءها خشعة لله عز وجل، وخشوعها خروجها فى سرباها الذى سربلت به من نور العرش، فتهافت الضوء، فكذلك النفس اذا أحست بالتجلى خشعت له عز وجل، أو خرجت من جميع شهواتها إلى ا لله عز وجل بما فيه من المعرفة والعقل فضرب، ثم قرب، ثم زيد نوراً، حتى كان له بين يديه، فهو يعبده كأنه يراد.

وهو قول جبريل عليه السلام "ما الإحسان" ؟ قال .. أن تعبد ا لله عز وجل

---

(١) هذا الحديث الشريف رواه الإمام البخارى والنسائى وابن ماجه وأبىداود والمسند .

كأنك تراه"[١] .

فحسن العبادة مع التزائى، فـإذا كـان محجوبـاً. فإنـه يعبـد ا لله ولا يلتمـس الحسن، والزينة فى العبادة .

بمنزلة رجل دعاه الملك ليقطع ثوباً بين يديه ويخيطه، فلا يـترك هـذا الصـانع من خفة اليد، وحسن الإبتداء، ووجازة الفعل، وإحكام الخياطة وزينتهـا، إلا صنعـه بين يدية، ويريد أن يتجلى بذلك عنده، فيكتسب به جاهاً عنده ومنزلة .

والآخر رجل دعاه الملك، وقال: اذهب بهذا الثوب فقطعه، وخطه، وأنفذه إلى فلان الراعى، فلما غاب عنه رفع عنه باله، فكيف قطعه، وخاطـه جوزه، لأنـه لم يشـعر برؤية الملك، ولا ذكر العرض عليه، وإن ما به ارتفاع العمل، فيقول: قد عملت، وأخذ الأجرة، وإنما جرأه على ذلك غفلته عن رؤية الملك، وعن العرض عليه ..

(السير إلى ا لله)

فعمال ا لله عز وجل ثلاثة أصناف .

عامل يعمل على التزائى، فلا يترك زينة، ولا مبادرة، ولا سـرعة، ولا خفـة يده، ولا طهارة، ولا تعظيماً، ولا وجازة، ولا مسابقة. إلا جاء بها، يريد أن يتحلـى بذلك عند مولاه عز وجل .

وعامل ليس له هذا التزائى، وهو محجوب القلـب بالشـهوات، صـادق فـى إبتغاء مرضاته، ذاكر للعرض عليه، فلا يـتزين، ولا يبـادر، ولايعظـم، ولا يسـارع، ولا يوجز، ولا يسابق، ولكنه يعمل علـى الأحكـام، وحفـظ الحـدود، وإتمـام الأمـر

---

(١) رواه الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضى ا لله عنه،وهو حديث طويل شمل السؤال عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة .

بالأركان.

وعامل لا يذكر رؤية ربه عز وجل. أنه ناظر إليه فى هذا العمل، ولا هو ذاكراً لعرض الأعمال يوم القيامة، فهو يعمل على الغفلة على التجويز، فإنما يعمل كل صنف منهم على نوره الذى فى صدره.

فجملة ما وصفنا من أمر السير إلى ا لله تعالى. أن يتقى فرح النفس، أن يتركها حتى تفرح بشئ من أحوالها، أو بتناولها من الدنيا وأعمال البر، كلما ظهر فرحها نغص عليها بالمنع لها، والانتقال عنه حتى يملأها غماً .

فيذوب الفرح الذى يتأدى إلى القلب، ويظهر النور، ويظهر فى ذلك النور الفرح با لله عز وجل .

لأن ذاك النور يؤدى به إلى صفات ا لله عز وجل، وإلى عظمته، وجلاله، وجماله، وكبريائه، وبهائه، وسؤدده، وكرمه وجوده، وبره، ملطفه، ومننه، وإحسانه، ورحمته.

فمحال أن يعتقد القلب هذا الفرح حتى يدوم له ذلك، وتزول عنه أفراح النفس، ثم يصير فى فرحه با لله عز وجل حزيناً، لأنه محبوس عنه برمق الحياة فى دار الدنيا، مشتاق إلى ربه عز وجل، قد أنس به واشتاق إلى لقائه، واستوحش من الدنيا وأهلها .

وهمته ذكر ا لله، وعبودية شهوته، وموت راحته ويوم عيده. وتحقيق ما وصفناه من ضرر فرح النفس. أن ا لله عز وجل حرم المعازف، والخمر على لسان نبيه صلى ا لله عليه وسلم. وما نطق به الوحى فى شأن الخمر، وذلك أن ا لله عز وجل لما خلق الفرح، وجعل له باباً.

فلما خلق الجنة، خرجت الأغراس من باب الرحمة، وخرج غرس العنب. من باب الفرح، فلذلك أول ما أكل آدم صلى الله عليه وسلم حين دخلها العنب، فامتلأ فرحاً.

وروى أن رسول الله ﷺ سئل: دوما أول ما يأكل أهل الجنة؟ قال:- العنب: وأول ما أكل آدم العنب، فامتلأ فرحاً، ووضع من الفرح فى تلك النار التى فيها الزينة بباب النار التى سميت شهوات .

فجعل ذلك الفرح حظ إبليس، حتى يأخذه فيضعه فى الأشياء التى يغوى الآدميين بها، فلما أضل إبليس المشركين بذلك الفرح، دخل الأشجار وكل معبود من دون الله عز وجل، فصّوت منها بذلك الفرح .

فكل من يتبع صوته سبى ذلك الفرح قلبه، حتى يجيبه إلى الشرك، وإلى عبادته. فهو يرى أنه يعبد الشجرة والوثن، وإنما يعبد الطاغوت .

وإبليس طغى حتى بلغ غاية الطغيان. فقيل: طاغوت. وذلك قول الله عز وجل: كل حزب بما لديهم فرحون" بأديانهم، وإنما يفرحون با لله عز وجل، ولكن غير المقبول منهم، وهم يحسبون أنهم مهتدون بذلك الفرح لأنهم تناولوه من إبليس، لا من هداية الله عز وجل ومعرفته .

وإنما وصل إلى غواية آدم صلى الله عليه وسلم، بما استفرحوا بصوته من الفرح .

روى فى الخبر: أنه لما دخل الجنة صوت من مزمار له. حتى كادت حواء تطير من الفرح .

فقالت: ما هذا الصوت ؟

قال: لسروري بكمالكما .

ثم قلب المزمار، فناح نياحة أخذ تقلبها، حتى امتلأت حواء خوفاً .

فقالت: ما هذا الصوت؟ فقال حزناص عليكما أن تموتا، أو تخرجا منها .

فهناك دلها على شجرة الخلد، ولتخويف الزوال دلاهما بغرور، حتى ذاقا الشجرة، فلما همَّا صارا محجوبين بالهم، فلما ذاقا عريا من اللباس وانكشف العطاء عن الذنب، فوليا في الجنة هاربين. فبالفرح، خلص العدو إليه، حتى أكل من الشجرة فصرعه . [1]

فحرم الله عز وجل الخمر لما فيها من ذلك الفرح، لأن إبليس لما سرق العنب من سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، و افتقد نوح عليه السلام بينه وبين نبي الله صلى الله عليه وسلم على الثلث والثلثين، فكل ما وجده نياً أو مطبوخاً فيه بقية من حظه لم تأكله النار، خاض فيه يديه بفرحه الذي أعطي، حتى يتحول ذلك الفرح من يده إلى ذلك الشراب .

وإنما يزيد، ويغلي بحرارة يده الملعونة، لأنه خلق من النار، فإذا شربه الشارب، وقد تحول ذلك الفرح من يديه في ذلك الشراب، دب في هذا الشارب، وانكمن العقل، لتدنس يده رجاسته .

فشاربه يحتمل مرارته، وذهاب عقله، وتلف ماله، وألم جسده، والآفات التي تحل به، فإنما يحتمل ذلك كله من أجل ذلك الفرح الذي دب فيه.حتى يصده عن ذكر الله عز وجل، وعن الصلاة.

---

(١) شجرة الخلد هي المشار إليها في قوله تعالى (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) سورة طه: ١٢٠ وقد اختلف العلماء في تعيينها .

ووجد سبيلاً إلى أن يحرس بينهم، ويغرى بعضهم ببعض، فحرمه ا لله عز وجل، لئلا يفرح. بفرح هو حظ إبليس لعنه ا لله تعالى .

فكذلك أصوات المعازف والملاهى، تلك الأصوات ممزوجة بالفرح الذى بيده، فلا يلتذ المستمع إلا بما يمازجه من الفرح الذى بيد العدو، فإذا مازجه وسمع الآدمى هاج بالفرح منه، ودب فى جميع جسده، وطرب حتى وثب ورقص كالقرد.

فحرم ا لله عز وجل هذه المعازف، للفرح الممازج من حظ العدو فيها وأطلق هذه الأشياء التى لا غنية بالآدمى عنها، مما هو له غذاء، أو معاش، ثم حذره أن يلهيه ذلك الفرح حتى يأشر، ويبطر، ويتعدى الحدود .

فالكيس حسم باب الفرح عن نفسه من من كل حلال أو حرام، ومن جميع أعمال البر، مما يجد فى النفس استرواحاً إليه، وبه فرحاً، حتى ملأها غماً، حتى طهر قلبه، وتجلت فيه أنوار العزيز، الماجد، الكريم، على ما ذكر بدياً .

وعريت الملائكة من الشهوات، والجوارح، والأجسام، والأجواف، والضرورات. فلا يحتاجون إلى طعام، ولا شراب، ولا كسوة، ولاكن يستكنونه من الحر والبر. فنجت من فتن الآدميين وضروراتهم، ومكايد العدو، وأظهر خلقهم من التدبير بقوله "كن"[١] .

وعاملهم من ملك الجبروت، ومقاومهم فى ملك الجلال، وأظهر خلقنا من

---

(١) كلمة (كن) التى بمعنى المشيئة (كن فيكون) وردت فى ثمانية مواضع فى الذكر الحكيم، منها :-

﴿واذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ البقرة: ١١٧

﴿ويوم يقول كن فيكون﴾ الأنعام : ٧٣ .

﴿سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول لهكن فيكون﴾ مريم : ٣٥ .

يده، وعاملنا من ملك الرأفة، والرحمة، ومقاومنا فى ملك المحبة.

فالملائكة مجبورون على حال واحد، لا ينفكون ولا ينقلون عنها. والأدميون خدم بين يديه عز وجل، يتقلبون من حال إلى حال، وكل أحوالهم خدمة .

وإنما صار هكذا. لأن المعرفة من الملائكة على الأبصار، والمعرفة من الأدميين على القلوب، والقلب أمير على الجوارح .

فحركات الجوارح كلها من تقلب القلب بمشيئاته، ومشيئاته بمشيئات ربه عز وجل.

فأى جارحة حركها فإنما محركها قلبه، والقلب شاخص إلى الله عز وجل بوله فى تلك الحركة فتلك خدمة منه له، مأخوذة هذه اللفظة من خدمة الساق، لأن الآدمى إذا قام منتصباً، قام على خدمة ساقه، فهو بالقلب قائم بين يدى ربه عز وجل.

ومنه تتأدى الحركات إلى الجوارح، حتى تظهر على الجوارح. فقيامه ونهوضه إلى ربه عز وجل بتلك الحركة هو خدمته، وهو النية التى ينوى بها العبد فى كل عمل.

[إنما الأعمال بالنيات]

والنية النهوض، يقال فى اللغة: ناء ينوء، أى نهض ينهض. فالقلب يرتحل إلى الله عز وجل، حتى يصل إلى سدرة المنتهى. إن كان له طريق، فإن حبس فى الطريق فللتهمة احتبس، ولسوء الأدب منع، وانسد الطريق، فعلى أى حال كان، فقد نهض من مكانه إن وجد الطريق أو لم يجد.

ويقول للجارحة التى تعمل ذلك العمل تحركى بذلك العمل فـى حركـاتك وأنفذى العمل على أثرى، فإنى واقف بالباب، أبتغى من ربى عز وجل مرضاته، بمـا ينفذ إليه على أثرى فهذه النية.

ثم الناس فى نياتهم على درجات، على تفاوت عقولهم، ولذلك قال رسـول الله ﷺ ، فيما يروى عنه، قال: "يعملون الناس الخير ويعطـون أجورهـم علـى قـدر عقولهم".

وروى عـن الله عـز وجـل: قـال ياموسـى: "إنما أجـزى النـاس علـى قـدر عقولهم". قال له قائل: صف لنا شيئاً منه، كيف تتفـاوت علـى قـدر العقـول؛ قـال: مثل رجل دخل المسجد فوجد الصف الأول قد قام، فوقف فى الصف الثـانى، فقـد سقط من درجة الصف الأول.

ودرجتـه أنـه جـاء عـن رسـول الله ﷺ : "إن الله وملائكتـه يصلـون علـى الصف الأول".

وجاء : أن الرحمة تنزل على الإمام مائة رحمة، فيأخذ من بحياله خلفه[1] مثل ما للإمام، ثم الذى عن يمينه إلى منتهى خمسة وسبعين، ثم الذى عن يساره خمسـون. فمن دخل المسجد فوقف فى الصف الثانى عن غفلـة لم ينـل عـن صـلاة الـرب عـز وجل شيئاً ولا من هذه الرحمة التى وصفت عن بن عباس ﷺ .

فمن دخل فنوى: أنى لو وجدت مكاناً لدخلت الصـف الأول فبهـذه النيـة استوى هو بالصف الأول ، وله مثل أجورهم لما نوى، كأنه فيهم.

---

(١) حديث صحيح ورد فى سند الإمام أحمد، وأورده الطبرانى بسند جيد كذلك. وورد كذلك فى صحيح الجامع (٢/١٣٣-١٣٤).

ثم إذا تمنى أن يدخل فى الصف الأول ونوى ذلك، وامتنع وتحرج مخافة أن يؤذى مسلماً، أو يضيق عليه، يضاعف أجره على من فى الصف الأول، بما اتقى أذى المسلم.

كذلك روى عن رسول الله ﷺ فى شأن النية، وفى شأن التقوى؛ عن أبى كبشة الأنصارى رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "أحدثكم حديثاً فأحفظوه: إنما لدنيا أربعة نفر:

عبد رزقه لله عز وجل علماً، ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية، يقول لو أنى لى مالاً لعملت بعمل فلان، فأجرهما سواء.

وعبد رزقه لله عز وجل مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يتخبط فى ماله بغير علم، فلا يتقى فيه ربا، ولا يصل فيه رحماً، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهو بأخبث المنازل.

وعبد لم يرزقه لله عز وجل مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لى مالاً عملت بعمل فلان.

حدثنا الفضل بن محمد، حدثنا زريق بن الورد الرقى، حدثنا أسلم بن سالم، عن[1] بن عبد الغفار بن ميمون عن عبد الملك الجزرى، قال: قال رسول الله ﷺ "من ترك الصلاة فى الصف الأول مخافة أن يؤذى مسلماً أو يزاحم أحداً، فصلى فى الصف الثانى أو الثالث أضعف الله عز وجل أجره على من صلى فى الصف الأول".

---

(١) حديث صحيح أخرجه النسائى والإمام أحمد فى مسنده بسند جيد.

فهذا بعقله نال زيادة الثواب على الصف الأول.

والآخر بغفلته وجهله سقط عن هذا الثواب.

فهذا تفسير "إنما أجزى الناس على قدر عقولهم".

ولذلك قال رسول ا لله ﷺ ، فيما يروى عنه: : ولا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله".

فالصادقون المخلطون: قلوبهم محجوبة بالشهوات. فنيتهم النهوض بالقلب. إذا نهضوا لم يجدوا منفذا. فيقضون حيث بلغوا من الجو.

وأما الذين فتح لهم فى الغيب. فإن قلوبهم تنهض إلى العلا حتى تبلغ مقامه. فهناك يبتغى وأما الذين فتح لهم فى الغيب. فإن قلوبهم تنهض إلى العلا. حتى تبلغ مقامه. فهناك يبتغى مرضاة ربه تعالى. وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه على أثره. فذلك النهوض هو نية.

والسابقون الذين وصلوا إلى ا لله عز وجل فى مقامه، يترضى ربه عز وجل ثم يلحقه العمل على الأثر، فالنيات متفاوتة، فهؤلاء خدم.

[الملائكة]

وأما الملائكة – عليهم السلام ، فإنما يعملون فى مصافهم، ومقاومهم على الأبصار؛ وإنما خص جبريل عليه السلام من بين الملائكة، لأنه خادم ربه عز وجل، لأنه بين يديه على ساقه يخدمه باختلاف الأحوال، وأهل السموات فى مصافهم، فالملائكة فى أعلى الخلق مكاناً وهم سخرة للآدميين.

فأما إسرافيل عليه السلام – فقابض الوحى، ومؤديه إلى جبريل عليه السلام

وصاحب الصور، يدعوهم إلى الحشر وقبض الجزاء.

وأما جبريل عليه السلام فصاحب الرسالة.

وأما ميكائيل عليه السلام فقابض أرزاق الآدميين، والموكل بالقطر، والنبات والرياح لمعاش الآدميين.

وأما ملك الموت عليه السلام فقابض أرواحهم.

وأما حملة العشر فموكلون بالاستغفار للآدميين.

وأما الكوريون، وأهل عليين فموكلون بالإستغفار والتضرع، والبكاء على أهل الذنوب من الآدميين.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لما أسرى بى سمعت دوياً، فقلت ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا بكاء الكوريين على أهل الذنوب من أمتك".

وأما أهل السموات فموكلون فى صلاتهم بالاستغفار، ووفارة التقصير؛ وآخرون موكلون بالرياح، وآخرون موكلون بالسحاب، وآخرون موكلون بالشمس، وموكلون بالقمر، وموكلون بالنبات، وموكلون بالجبال، وموكلون بالبحار، وموكلون بالليل، والنهار، وموكلون بالحر، وموكلون بالبرد، وموكلون برزق الخلق. صباح كل يوم، وموكلون بالثلج، وموكلون بأعمالهم: حفظة كتبة، وموكلون بالحراسة، وهم المعقبات؛ وموكلون بالهداية على القلوب، وموكلون بالهداية فى الأسفار بالاستقامة، وموكلون باتمام الكلام.

فإذا قال: الحمد لله. قال الملك: رب العالمين؛ وإذا قال العبد: سبحان الله

قالت الملائكة: وبحمده، ويكتب ذلك لصاحبها[1] .

وموكلون بصلاة الآدميين في صفوفهم، فكلما زاد الرجل زاد معه ملك رحمة، وموكلون بحجهم، وفي مشاهدهم وموقفهم.

وموكلون بالزحف للنصر عند لقاء العدو؛ وموكلون بجنائزهم للتشييع. فهم أمام الجنازة.

وموكلون بليلة القدر، ونزول الروح، والتسليم على الآدميين.

وموكلون بالأعياد، وحمل الجوائز.

وموكلون بالتثبيت للآدميين في أعمالهم.

وموكلون بنزع الأرواح منهم، ورفعها إلى ا لله عز وجل، في مقام العرض.

هذا كله في الدنيا.

ثم إذا قامت القيامة فموكل بنفخ الصور، وموكل بالبشرى للموحدين، وموكل بحمل كسوة للآدميين.

وموكلون بالرحمة ليقسموها عليهم، وموكلون بجنبات النار، ينادون ربهم عز وجل، يسألونه السلامة.

---

(1) ليس خافياً أن الملائكة يسددون عباد ا لله الصالحين ويثبتونهم، فهم يصلون على المؤمنين، وعلى معلم الناس الخير، ويصلون على مَنْ يأتي للصلاة، ومن يكونون في الصف الأول، ومن يمكثون في مصلاهم بعد الصلاة، وعلى المتسحرين، وعلى الذين يصلون على النبي ﷺ ، وعلى الذين يعودون المرضى، ويؤمنون على دعاء المؤمنين، ويستغفرون للذين آمنوا، ويلتمسون مجالس الذكر ، ويسجلون الذين يحضرون الجمعة، ويتنزلون على من يقرأ القرآن، ويبلغون الرسول الكريم ﷺ على أمته السلام، وهكذا.

وموكلون بوزن الأعمال، وعرض الدواوين.

وموكلون بحمل الأعمال من الخزائن إلى الموقف.

وموكلون بتشييعهم إلى الجنان من الموقف.

وموكلون فى الجنان بالخزانة: قهارمة وزوارة، وحملة هدايا من رب العالمين.

وجبريل عليه السلام موكل فى الدنيا بأداء الوحى، وتبليغ الرسالة، ويوم القيامة بوزن الأعمال، وفى الجنة بالنداء من بطنان العرش، للزيارة إلى رب العالمين.

فوجدنا الملائكة، كلهم مسخرون لنا فى الدنيا، ويوم القيامة، وفى الجنان إلى الأبد. فأدم عليه السلام حليفة الله عز وجل فى أرضه، والملائكة جند الخليفة. يعمولن له ولولده. فاذكرنا فى ولده. فى ضرب ولده عمرته الملائكة وما أفسد ولده أصلحته الملائكة، وما دنس ولده غسلته الملائكة وطهرته.

وروى عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه قال: "قالت الملائكة: ياربنا منا المقربون، ومنا الصافون المسبحون، ومنا الكرام الكاتبون، ومنا ومنا، جعلت الدنيا لبنى آدم يأكلون ويشربون، فأجعل لنا الآخرة. قال: لن أفعل. فعاودوه بمثل مقالتهم، فقال: لن أفعل. ثم عاودوه فى الثالثة، فقال: لن أفعل، لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى، كمن قلت له: كن فكان، هم عبادى المقربون، والملائكة عباد مجبورون ومكرمون بالعبادة والطهارة، والآدميون خدم وتجار معاملون.

[المعرفة]

فالمعرفة رءوس أموالهم، والحركات تجاراتهم، ومرضاة الله عز وجل أرباحهم.

قال الله عز وجل: ﴿والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ تقلبوا فى مرضاته، وثووا فى جناته، تحت عرشه فى جواره، فأكرم الله تعالى هذا المؤمن بمعرفته، فأحرزه فى ذمته، وحرم عرضه ودمه وماله، وعظم وحرمته، فأعلمهم بالله أعظمهم حرمة، وأقربهم وسيلة، وأكرمهم عليه.

فمثل العالم به كمثل رجل نظر إلى شخص رجل، حتى عرفه بالوجه، فهو ساكن القلب، حتى إذا عرفه بخصلة من خصال الشرف، فوجد قلبه قد تغير له إلى التعظيم والإجلال.

فإن كان قد جمعت هذه الخصال فى رجل واحد، مما وصف الله عز وجل بها نفسه، من الجود والغنى، والرأفة والرحمة، والسماحة، والكرم، والمعرفة بالأمور، والقوة والتدبير، ومحاسن الأخلاق، عظم شأن الرجل عندك، حتى تهتم فى ذكره وأوصافه.

فمن كشف له الغطاء حتى عرف ربه عز وجل بأسمائه الحسنى، وبأمثاله العلا، كان أسبى لقلبه، وألهج لذكره.

وابن آدم مطبوع على سبعة: وهى الغفلة، والشك، والشرك، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب. فهذه سبعة أخلاق.

فإذا جاءه نور الهداية حتى عرف ربه عز وجل ووحده، ذهبت الغفلة، وذهب الشك، والشرك. فهو يعلم ربه يقيناً، وينفى عنه الشرك، وزال الشك عنه.

ثم جاءت الشهوة، فأظلم الصدر بدخانها، وفورانها، ذهبت بضوء علمه، واستنارته، وتحير فى أمر ربه عز وجل كالشاك، وظهر شرك الأسباب، فكلما إزداد العبد معرفة وعلماً بربه عز وجل استنار قلبه، وصدره، وانتقص من الغفلة.

ومن هذه الخصال السبعة كلها، حتى يمتلئ صدره من عظمة ا لله عز وجـل وجلاله، فعندما كشف الغطاء، وصار يقيناً، وزايله شرك الأسباب، وماتت الشهوة، وذهب الغضب، وذهبت الرغبة، والرهبة، فلا يرغب إلا ا لله عز وجل، ولا يرهـب إلا منه، ولا يغضب إلا فى ذات ا لله عز وجل. و لله، ولا يشـتغل بشـهوة إلا بذكـر ا لله عز وجل.

[رياضة النفس]

قال له قائل: صف لنا من رياضة النفس شيئاً. قال: إن النفـس إذا اعتـادت اللذة، والشهوة، والعمل، بالهوى، أقبل على فطمها عن العادة فى كل شئ، فكلمـا اشتد عليها فطم شئ فأقبل قبل ذلك الشئ حتـى تعظمهـا عنـه، حتـى يصير قلبـك حراً، يألف مع ا لله عز وجل بيره ولطفه.

فقد رأيت البازى كيف يلقـى فـى البيـت، وتخـاط عينـه، حتـى ينقطـع عـن الطيران، ويربى باللحم، ويرفق به، حتى يأنس بصاحبه ويألفه إلفاً، إذا دعاه فسـمع صوته أجابه.

فكذلك النفس إنما تجيب ربها عز وجل فيما أمرها بعد فطامها مـن عـادات الأمور التى اشتهت ولذت، فـإذا فطمهـا ألزمهـا الدعـاء، وثنـاء الـرب عـز وجـل، ومدائحه، ونجواه، حتى تـأنس بذلـك، وتـألف الذكـر، حتـى ينكشـف الغطـاء بعـد ذلك، فيألف ربه عز وجل.

وكذلك تجد الصبى قد ألف ثدى أمه. حتى لايكاد يصبر عنـه ساعة، فإذا فطمته اشتد على الصبى، وبكى، وقلق، فإذا دام الفطم نسـيه وأقبـل علـى الطعـام، والشراب، فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدى، وعاف ذكر اللبن.

وكذلك تجد الدابة تؤخذ من الدواب السـائمة، لتـؤدب وتعـود الركـوب، ففى الابتداء تنفر عن اللجام، والسرج، فتشكل حتـى تسـرج وتلجـم حتـى تعتـاد، وتعلم السير حتى تصير أذنها إلى العنان وقلبها إلى إشارات الراكب بذلك العنان.

فإذا بلغ بها القنطرة. وثبت وثبة لاتدعها تجور، فتعتاد ذلك، فليس فى كل مكان يوجد قنطرة، فيعودها الوثب وسـيرها فـى جلبـة الصنّـاعين، مثـل الحداديـن، والنجارين.

فإذا نفرت من تلك الأصوات أو تركـت سيرها. أدبهـا حتـى لا تنفـر ولا تتحير، حتى تصير أديبة سيورة.

فكذلك الآدمى، يؤدب كما تـؤدب هـذه الطيـور، والـدواب بـالفطم عـن عاداتها، وكل شئ تجد النفس لذته فى وقت تفرح بذلك الشئ. فإذا فرحت به فقد تدنس بذلك الفرح، فيصير غشاء عليه، حجاباً له من ذلك الفرح.

فكان أهل الصدق فى هذه الطرق يلزمون هذا الباب الذى وصفت، فكـل شئ تفرح نفوسهم به مـن وجـود لـذة ذلـك الشـئ كائنـاً مـا كـان، مـن طعـام، أو شراب، أو لباس، أو أهل، أو ولـد، أو أخ، أو مؤنـس، أو أصحـاب، أو أمكنـة، أو عرض من عروض الدنيا، فكانوا يتقون الفـرح لذلـك، فيـأخذون مـن ذلـك الشـئ الذى لابد لهم منه على الضرورة، ثم يهربون من لذته خوفاً علـى النفـس أن تفـرح بذلك.

فإذا دام على ذلك صاحبه، فذلك تقوى الباطن.

وأما تقوى الظاهر: فهو حفظ الجوارح مع الخلق، والملائكة.

فإذا فعل ذلك فأدى الفرائض لمواقيتها، وحدودهـا، واستعان علـى النفـس

برؤية المولى والمقابر، وأهـل السـجون، والمواضـع التـى فيهـا النـيران العظيمـة، مـن الأتون ومذاب جواهر الزجاج، فإن فى ذلك قمعاً للنفس أو رثه فعله بنفســه الغـم، ومن الغم الهم، والأحزان.

ولذلك قال رسول ا لله ﷺ "ما عبد ا لله عز وجل بمثل طول الأحزان"[١].

تم كتاب الرياضة، بحمد ا لله ومنه

وصلى ا لله على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليما كثيرا

---

(١) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر.

المراجع

١- كتب الأحاديث الصحاح، وكتب السنن الستة.

ومسند الإمام أحمد بن حنبل.

والمعجم المفهرس لأحاديث الرسول ﷺ .

وصحيح الجامع الصغير، والكبير.

٢- القواميس اللغوية: القاموس المحيط، المعجم الوسيط.

٣- تفسير الإمام القرطبى الجامع.

وتفسير الإمام ابن كثير.

٤- المؤلفات المنشورة للحكيم الترمذى مثل:

- أدب النفس.
- إثبات العقل.
- بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب.
- ختم الأولياء.
- شفاء العلل.
- علم الأولياء.
- غرس العارفين.
- غور الأمور.

- منازل العباد من العبادة.
- نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول.
- الأمثال من القرآن والسنة.
- الحج وأسراره.
- تحصيل نظائر القرآن.

٥- إغاثة اللهفان: ابن القيم.

٦- بصائر ذوى التمييز: الفيروز آبارى.

٧- معارج القبول: الشيخ حافظ الحكمى.

فهرست الكتاب

اسم الموضوع	رقم الصفحة